من أسرار التناسب القرآني
دراسة تطبيقية
في دعاء زكريا عليه السلام[1]

إعداد

د. إسماعيل رفعت إسماعيل السوداني

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بجامعة الجوف

باحث دراسات عليا بجامعة الأزهر الشريف

(١) تم دعم هذا البحث من قبل جامعة الجوف تحت مشروع بحثي رقم (٣٤/٢١٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم افتح علي فتوح العارفين
بحكمتك، وانشر علي رحمتك
وذكرني بما نسيت

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهم إلى يوم الدين ، وبعد....

لقد شغلني ، كما شغل كل مؤمن متأمل لكتاب رب العالمين الوقوف على وجه المناسبة والسر البلاغي ، وراء اختلاف الصيغ في دعاء زكريا عليه السلام ، حيث ورد بثلاث صيغ مختلفة في ثلاثة مواطن من النظم الكريم ، في سورة آل عمران ، و سورة مريم ، و سورة الأنبياء .

فجاء هذا البحث بعنوان : « من أسرار التناسب القرآني ، دراسة تطبيقية في دعاء زكريا عليه السلام » ليجيب – قدر الاستطاعة والتوفيق – على عدة أسئلة تهم قارئي كتاب الله – تعالى – ؛ وتكشف عن أوجه إعجاز القرآن الكريم ، وتبين شيئا من سر بلاغته .

أولها : بيان المناسبة وراء إيثار النظم الكريم لفظ الذرية في دعاء زكريا عليه السلام في سورة آل عمران .

ثانيها : وجه المناسبة لقوله تعالى :« فنادته الملائكة » دون أن يكون النداء من الله بلا واسطة كما جاء في سورة مريم .

ثالثها : المناسبة في إيثار النظم الكريم صيغة الوليِّ في سياق سورة مريم « فهب لي من لدنك وليا » .

رابعها : مناسبة إجابة الدعاء « يا زكريا إنا نبشرك » في سورة مريم دون ذكر الملائكة ، كما جاء في سورة آل عمران .

خامسها : مناسبة مجيء النظم الكريم بصيغة الفردية في سياق سورة الأنبياء « رب لا تذرني فرداً » دون الذرية والولي كما في سورة آل عمران ، وسورة مريم .

سادسها : مناسبة لفظ الاستجابة « **فاستجبنا له** » دون البشارة كما في سورة آل عمران وسورة مريم .

وذلك من خلال منهج تحليلي شامل لأجزاء النظم الكريم ، مما يخدم الفكرة ، ويؤصِّل لها ، ويجلي شيئا من السر البلاغي في اختيار هذه الألفاظ دون غيرها ، مع عدم إغفال التنويه بمقصود السورة وعلاقة الآيات موضع الدراسة به ، ليبين مدى الترابط ، والتلاحم ، والانسجام بين أجزاء السورة كاملة .

وليس الهدف من بحثي هذا تحليل أجزاء النظم ، بل التحليل يأتي تبعا ليؤكد ما رمت إليه من بيان أوجه التناسب ، ولكن الهدف هو الإجابة على تلك الأسئلة السابقة ، وبعد مطالعة لجل كتب التفسير لم أجد من تعرض لهذه النقاط بالشرح والتفصيل ، أو أشار إليه من قريب أو بعيد.

ويأتي هذ البحث في مقدمة وتمهيد وتوطئة وثلاثة مباحث وثبت للمصادر والمراجع وفهرس للموضوعات .

– المقدمة تحدثت فيها عن أسباب اختيار الموضوع ، والمنهج المتبع ، وخطة الموضوع.

– التمهيد تحدثت فيه عن تعريف علم التناسب ، وأهميته ، والتعريف بالتناسب البلاغي ، والدراسات السابقة ، و صورالتناسب القرآني .

– توطئة بين يدي البحث « زكريا عليه السلام » العلم الأعجمي وجه جديد من وجوه إعجاز القرآن .

المبحث الأول : من أسرار التناسب القرآني في دعاء زكريا عليه السلام في سورة آل عمران .

المبحث الثاني : من أسرار التناسب القرآني في دعاء زكريا عليه السلام في سورة مريم .

المبحث الثالث : من أسرار التناسب القرآني في دعاء زكريا عليه السلام في سورة الأنبياء .

الخاتمة : ذكرت فيها أهم نتائج البحث .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به ، وأن يغفر تقصيري ، ويعفو عن زلاتي ، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير .

تمهيد

مدخل لدراسة التناسب

يحتل علم المناسبة أو التناسب موقفا متميزًا في الدرس القرآني ؛ لأنه فن قائم على سبر أغوار النص ، والتعمق في بنائه اللفظي ، وإيحائه الأسلوبي ؛ لمعرفة مدى دقة اختيار اللفظة في موقعها المناسب ، وعلاقة الجمل بعضها ببعض ، ومناسبتها لسياقاتها الواردة فيها .

وكلمة التناسب في أصلها اللغوي تدل على القرابة ، والشركة ، والمشاكلة [(١)]، مما يدل على شدة الصلة ، وقوة العلاقة بين الأفراد، إنها تؤكد اللحمة الوثيقة التي تربط بين بني الإنسان، ومن هنا نجد « التناسب يستمد فاعليته في الربط بين العناصر من الجذر الاشتقاقي الذي اشتق منه ، وهي فاعلية تزداد شدة وقوة مما يأخذه المصطلح من بنيته الصرفية (التفاعل) ... »[(٢)].

ولقد ذكر السيوطي في تعريفه للتناسب أوجه العلاقات بين أجزاء الكلام التي من خلالها تتم عملية التناسب فيقول : « المناسبة في اللغة

---

(١) ينظر لسان العرب– مادة (نسب) محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري (المتوفى: ٧١١هـ) – دار صادر – بيروت – الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ وتاج العروس من جواهر القاموس – محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ) – تحقيق : مجموعة من المحققين – دار الهداية .

(٢) ينظر التناسب بين عناصر القصيدة عند النقاد والبلاغيين وقيمته في الفكر الحديث – جريدي سليم الثبتي : ٣٤ ، رسالة ماجستير – جامعة أم القرى ١٤٠٤هـ .

المشاكلة والمقاربة ، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينهما عام أو خاص ، عقلي ، أو حسي ، أو خيالي ، أو غير ذلك من أنواع علاقات التلازم الذهني كالسبب والمسبب ، والعلة والمعلول ... »[١]

فالتناسب البلاغي مصطلح يحمل الدلالة على حسن العلاقة القائمة بين الأجزاء والعناصر التي يتألف منها المقطع من الكلام أو السورة من القرآن[٢] .

وحينما يتصل موضوع التناسب بالإعجاز البلاغي ، نجد أننا أمام علم جليل ، له غاياته البلاغية العالية التي تؤدي إلى استظهار دلائل الإعجاز، ودقائق التعبير ، ولطائف الارتباطات ونظرًا لما في التناسب البلاغي من دقة بالغة ، فقد وُصِفَ علم المناسبات القرآني بأنه علم خاصة الخاصة ، ولذلك قل المشتغلون به من أهل التفسير ، لتطلبه يقظة حادة ، وقوة تأمل وإدراك[٣].

وعرف البقاعي علم مناسبات القرآن بأنه « علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه ، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال ، وتتوقف الإجادة على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها ، ويفيد

---

(١) ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي تحقيق محمدأبو الفضل إبراهيم ٣ / ٣٦٩ – ٣٨٩ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م .

(٢) ينظر التناسب البياني في القرآن أحمد أبو زيد:٦ ، طبعة منشورات كلية الآداب – الرباط ١٩٩٢ م .

(٣) ينظر البرهان في علوم القرآن للزركشي : ١ / ٣٦ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم المكبة العصرية بيروت .

ذلك معرفة المقصود من جميع جملها ، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة ، وكانت نسبته من علم التفسير كنسبة علم البيان من النحو »[١].

ويأخذ التناسب القرآني أشكالا مختلفة ، فهناك التناسب بين السور بعضها ببعض ، وهو مبحث قديم يهتم بمعرفة الأسرار الخفية في تنظيم السور القرآنية وفق ترتيبها في المصحف .

وهناك تناسب بين الآيات داخل السورة الواحدة ؛ ليحقق البحث في معرفة هذا التناسب نتيجة تكشف سر ترتيب الآيات ، وترابطها ، وتماسكها ، واتصالها في انتظام عجيب ؛ يبرهن على الوحدة العضوية للسورة ، والتحام أجزائها .

والبحث في هذا التناسب يوصف بالدقة ، والخفاء ؛ لأنه يبحث في علاقات المعاني التي من خلالها تشكل الارتباطات المؤلفة لوحدة النظام بين الآيات ، مما يتطلب جهدًا في معرفة هذا التناسب[٢].

ومنه التناسب في اختيار اللفظة المفردة ، ومدى مناسبتها للسياق الواردة فيه ، وبناء الجملة وكيف أسهم في تأكيد المعنى وتوضيحه ، وعلاقة الجمل بعضها ببعض ووجه مناسبة ذلك كله لمقصود السورة وسياقها ، وهو

---

(١) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١ / ٥ دار الكتب العلمية طبعة أولى ١٤١٥هـ ، المقصود من قوله : كنسبة علم البيان من النحو أن علم التناسب يظهر أسرار الكلام :ما أن البلاغة تظهر أسرار النظم ، والنحو يقف عند الصح والخطأ

(٢) ينظر التناسب البلاغي في سورة لقمان لموسى درباش الزهراني ١-١٦ رسالة ماجستير جامعة أم القرى ١٤٢٤هـ -/ ٢٠٠٣م

ما يتطلب الإلمام بكثير من العلوم ، كعلوم اللغة والتفسير والقراءات ، مع ما يتطلبه من قدرة على التأمل والتدبر .

ومن أهم الدراسات في علم التناسب « البرهان في ترتيب سور القرآن » لابن الزبير الغرناطي في المصحف ، و« نظم الدرر في تناسب الآيات والسور » للإمام البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥هـ الذي يعد تطبيقًا عمليًّا على القرآن بتمامه ، و « النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن » للدكتور محمد عبد الله دراز ، ومن الدراسات الحديثة أيضا ما كتبه سيد قطب في كتابيه « في ظلال القرآن » ، و « التصوير الفني في القرآن » إلى غير ذلك من الدراسات التي تبحث في العلاقات والمناسبات اللطيفة وتحمل علمًا شريفًا ، وتفتح بابًا من أبواب البلاغة التطبيقية .

وإليك الدراسة التطبيقية في دعاء زكريا عليه السلام لإبراز ما يوفقني الله – تعالى – إليه من أسرار التناسب القرآني .

توطئة بين يدي البحث

زكريا عليه السلام العلم الأعجمي وجه جديد من وجوه إعجاز القرآن

زكريا عليه السلام نبي بنص القرآن لمجيئه في لفيف من ذرية يعقوب مُعَقّب عليه بقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾(١).

وقد كان إعجاز ميلاد يحيى لزكريا عليه السلام وقد بلغ من الكبر عتيا شبيها كل الشبه بمولد إسحاق لإبراهيم وسارة : كلتا المرأتين عجوز عاقر ، وكلا الرجلين شيخ كبير ، ولكن الخالق المبدع الباري الذي لا يعجزه شيء يقضي ما يشاء ويفعل ما يريد ، ولو شاء الله لخلق يحيى على مثال آدم ، ولكنه أراد النسبة إلى زكريا ، كما أراد من بعد في خلق عيسى النسبة إلى مريم ، وأراد قبل هذا وذلك النسبة إلى آدم أبي البشر جميعًا كيلا يضل أحد في دعوى البنوة لله ﷻ .

والقرآن الكريم لا يذكر مولد يحيى إلا ويعقبه بذكر مولد عيسى ، يمهد لإعجاز بإعجاز فكلتا الولادتين آية تنقطع دونها رقاب البشر ... .

وأخبار زكريا في القرآن لا تقتصر على أبوته ليحيى ، وإنما هو – أيضا – كافل مريم – عليها السلام – .

واسم زكريا يجيء في العبرانية من جزأين : زكر+ يا وينطق عبريا « زِخَرْيَا » بتحول النطق في العبرية بعد متحرك أو معتل من الكاف إلى الخاء .

أما المقطع الأول « زَكَر » فهو الجذر العبري « زَكَرْ» المكافئ في كل معانيه للجذر العربي « ذَكَرَ » أبدلت ذاله زايا ، وأما المقطع الثاني « يا» فهو مختصر من « يِهْوَا » اسم الله ﷻ في العبرية . وعلى هذا يكون معنى «

---

(١) سورة الأنعام آية ٨٩ .

زكريا » هو « ذكر اللهُ » بالرفع على الفاعلية ويكون المعنى : الذي يذكره الله وكما ورد في العهد القديم الذي تمنى على الله الولد وقد بلغ من الكبر عتيا فذكره الله في وحدته وضعفه وشيخوخته فاستجاب دعاءه على تفسير الفعل « ذَكَرَ » من الله على معنى « استجاب » .

أو معنى « زكريا » هو « ذَكَرَ اللهَ » بالفتح على المفعولية فيكون المعنى : ذَاكِرُ اللهِ .

وهذا المعنى أوجه من المعنى الأول ؛ لأن الفعل « ذكر » من هذا الذاكر يظل على أصل معناه والتفسير بالأصل أولى من التفسير بالمؤول ، وأدخل في دلالة الاسم على المسمى في حق « زكريا » المَعْنيِّ في الإنجيل والقرآن ، العبد الذاكر الخاشع لقوله تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾(١) يعني يجيء الذكر من العبد أولا ، يذكر الله فيذكره الله لا يصح العكس في جنب الله – تعالى – وهذا ما حدث لزكريا « ذَاكِرُ الله » ذكر الله فذكره الله كما تجد في قوله تعالى : ﴿ كهيعص ۞ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۞ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾(٢).

وقد عَرَّب القرآن « زكريا » طبق الأصل من صورتها الشائعة في الأناجيل اليونانية وهي Zacharia « زَخَرِيَّا » خالفوا العبرية بفتح الزاي البادئة بدلا من كسرها ، وشدَّدُوا الياء بدلا من تخفيفها وهو نفس النطق العربي لهذا الاسم في القرآن لولا إرجاع الخاء العبرية كافا على أصلها ، فقد

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٢ .

(٢) سورة مريم الآيات ١ – ٣ .

علم العرب من قبل أن خاءات العبرية كاف كلها فلا تجد لمعَرَّباتهم من تلك اللغة لفظا لم تبدل خاؤه كافا .

والقرآن الكريم فسَّر الاسم « زكريا » بأجلى بيان في موضعين :

الموضع الأول : التفسير بالمشاكلة في قوله تعالى : ﴿ كهيعص ۞ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾(١) وكأنها ذَكَرَت رحمةُ رَبِّكَ عَبْدَهُ ذَاكِرَ اللهِ ، لا تجد جناسا أبين من هذا ولا أدق ولا أجمل من روعة النظم المصاحب لجلال المعنى المنظوم في الآية يأخذ بمجامعك ؛ فتلتفت إلى الجناس اللفظي (جناس اشتقاق) بين « ذكر » و « زكريا » ، وتفوتك المجانسة المعنوية بين اللفظين التي استبانت لك الآن: زكريا = ذَاكِرُ اللهِ .

الموضع الثاني : حيث جاء الاسم « زكريا » مفسرا بالمرادف الدقيق في قوله تعالى :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ... وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾(٢)

وكأنه تعالى يقول : اذكر ربك يا ذاكر الله .

وبهذا نفهم معنى العلم الأعجمي « زكريا » ولا نقف عند القول بأعجميته وذلك فهم جديد جدير بالاعتبار والالتفات إليه (٣) .

---

(١) سورة مريم الآيات ١ – ٢ .

(٢) سورة آل عمران الآيات ٣٨ – ٤١ .

(٣) ينظر من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن وجه في إعجاز القرآن جديد رءوف أبو سعدة ٢٢٧ – ٢٣٢(بتصرف)، ط١٩٩٤م.

المبحث الأول

﴿ من أسرار التناسب القرآني في دعاء زكريا في سورة آل عمران ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) ﴾

مقصود سورة آل عمران:

مقصود سورة آل عمران الأصلي التوحيد ، فالسياق القرآني في السورة يثبت الوحدانية لله تعالى ، ويؤكد على أن ما أثاره الكفار على الإسلام لا يغني عنهم شيئا، ويذكر ما أعد للمتقين، ويسجل أوصافهم. (١)

ولإبراز مقصد السورة وهو التوحيد تسير السورة في ثلاثة خطوط رئيسة تلتقي كلها حول هدف واحد هو إبراز هذا الجانب :

الخط الأول : بيان معنى الدين ، ومعنى الإسلام ، والخط الثاني: تصوير حال المسلمين مع ربهم ، واستسلامهم له ، وتلقيهم لكل ما يأتيهم بالقبول والطاعة ، والاتباع الدقيق ، والخط الثالث: التحذير من ولاية غير المؤمنين ، والتهوين من شأن الكافرين. (٢)

مناسبة الآيات لمقصود السورة :

إن الناظر في الآيات الكريمات لا يدرك لأول وهلة سر التناسب بينها وبين مقصود السورة ، وعند إمعان النظر المرة تلو الأخرى نجد التلاحم والانسجام التام بين الآيات ومقصود السورة ، إذ إن ورود هذا القصص في هذه السورة على هذا النحو يمضي مع طريقة القرآن العامة في إيراد القصص لتقرير حقائق معينة يريد إيضاحها ، وغالبًا ما تكون هذه الحقائق هي موضوع

---

(١) ينظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ٢ / ٦٧ – ٦٩ (بتصرف) مكتبة المعارف – الرياض – الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

(٢) ينظر في ظلال القرآن سيد قطب ١ / ٣٤٨ – ٣٥٩ دار الشروق الطبعة الخامسة عشرة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

السورة التي يرد فيها القصص ، فيساق القصص بالقدر ، وبالأسلوب الذي يركز على هذه الحقائق ويبرزها ويحييها.

وهنا نجد القصص يتناول ذات الحقائق التي يركز عليها سياق السورة ، وتظهر فيها الخطوط العريضة ، التي ذكرتها في مقصود السورة ، ومن ثم يتجرد هذا القصص من الملابسة الواقعة المحدودة التي ورد فيها ، ويبقى عنصرًا أصيلًا مستقلًا يتضمن الحقائق الأصلية الباقية في التصور الاعتقادي الإسلامي.

إن مقصود السورة الأصلي – كما سبق – هو التوحيد ، وقصة عيسى عليه السلام وما جاء من القصص مكملا لها في هذا الدرس ، تؤكد هذه الحقيقة ، وتنفي فكرة الولد والشريك ، وتستبعدهما استبعادا كاملا ، وتُظهر زيف هذه الشبهة ، وسخف تصورها ، وتبسط مولد مريم وتاريخها ، ومولد عيسى وتاريخ بعثته وأحداثها ، بطريقة لا تدع مجالًا لإثارة أية شبهة في بشريته الكاملة ... .

ومن الموضوعات الأساسية في سياق السورة حال المؤمنين مع ربهم ، وهذا القصص يعرض جملة صالحة من هذه الحال في سير هذه النخبة المختارة من البشر ، التي اصطفاها وجعلها ذرية بعضها من بعض ، وتتمثل هذه الصورة الوضيئة في حديث امرأة عمران مع ربها ومناجاته في شأن وليدتها ، وفي حديث مريم مع زكريا ، وفي دعاء زكريا ومناجاته لربه....[1]

---

(١) ينظر في ظلال القرآن ١ / ٣٩٠ .

غير أن الشيخ الطاهر بن عاشور يرى أن هذه الآيات واسطة بين التمهيد والمقصد، كطريقة التخلص ، فهذا تخلص لمحاجة وفد نجران ... .[١]

والذي يبدو لي – والله أعلم – أن ما ذكره الشيخ الطاهر فيه نظر إذ ليست الآيات واسطة بين التمهيد والمقصد، بل هي ركن أصيل في مقصود السورة ، فإذا كان مقصود السورة التوحيد ، فإن القصص هنا يتجلى فيه التوحيد ظاهرا مجلجلا ، ففكرة الاصطفاء في قوله تعالى : ﴿ **إن الله اصطفى** ...﴾ دليل على وحدانيته وتصرفه بما فيه مصلحة العباد ، ثم قضية اللجوء إلى الله وحده بالنذر إليه لا إلى غيره أعلى صفات التوحيد ﴿ **إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي** ... ﴾ ثم تأتي قضية الامتثال لتبرهن على طاعة الواحد الأحد ﴿ **فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ** ... ﴾، ثم تأتي قضية الرزق والإذعان فيها بوحدانيته تعالى ، وأنه جل شأنه لا غيره هو القادر على الرزق بغير حساب ، فرَزَق مريم بغير حساب ، واستجاب لزكريا مع فقدان الأسباب.

مناسبة الآيات لما قبلها :

لمَّا بيَّن – تعالى – أن محبته لا تتم إلا بمتابعة الرسل في قوله تعالى : ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**

(١) ينظر التحرير والتنوير – محمد الطاهر بن عاشور : ٣ / ٢٢٩ مكتبة ابن تيمية .

﴾ سورة آل عمران آية ٣٢ ، بين علو درجات الرسل ، وشرف مناصبهم فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ .... ﴾[١]

ويجوز أن نقول : لمَّا بيَّن الله – تعالى – أن الدين المرضيَّ عنده هو الإسلام والتوحيد ، وأن اختلاف أهل الكتابين فيه إنما هو للبغي والحسد ، وأن الفوز برضوانه ، ومغفرته ، ورحمته منوط باتباع الرسول ﷺ وطاعته شرع في تحقيق رسالته ، وكونه من بيت النبوة القديمة ، فبدأ ببيان جلالة أقدار الرسل – عليهم الصلاة والسلام – كافة ، وأتبعه ذكر مبدأ أمر عيسى عليه السلام ، وأمه وكيفية دعوته للناس إلى التوحيد والإسلام .[٢]

والذي يستريح له القلب أنه لما أمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله بين السبب الباعث على طاعته، وهو كونه مصطفى مختارًا كبقية الأنبياء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

أو أنه لما كان هناك إنكار من هؤلاء المشركين على النبي محمد ﷺ نبوته ؛ لأنه بشر مثلهم ، وليس من بني إسرائيل ، ردَّ الله عليهم ؛ إن الله اصطفي

---

(١) ينظر مفاتيح الغيب للرازي ٨ / ٢٠ – دار الفكر – بيروت طبعة ثالثة ١٩٨٥م .

(٢) ينظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود ١ / ٣٤٩ – دار الفكر – بيروت ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني محمود شكري الألوسي ٣ / ١٣٠ ، ١٣١ – دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ومفاتيح الغيب ٨ / ٢٠ ، ٢١ .

آدم أبا البشر ، ونوحا الأب الثاني ، واصطفى من ذريتهما آل إبراهيم ومن آل إبراهيم آل عمران .

والمشركون الوثنيون يعترفون باصطفاء آدم ونوح لأنهما من سلالتهم ، وبنو إسرائيل يعترفون بهذا الاصطفاء لأنهم من سلالة (إسرائيل) يعقوب حفيد إبراهيم .

وإذا كان الله اصطفى هؤلاء على غيرهم من غير مزية سبقت ، فما المانع من اصطفاء محمد ﷺ بعد ذلك على العالمين ، كما اصطفى آل عمران على غيرهم ؟ .[١]

---

(١) ينظر (الوسيط) وهبة مصطفى الزحيلي ١٩٠/١ – دار الفكر دمشق – ط ١ – ١٤٢٢هـ .

التحليل

إن قصص الأنبياء ليس المقصود منه مجرد السرد التاريخي ، كما يسجل التاريخ ، وتدون قصصه ، إنما قصص القرآن المقصود به أولا : العظة والاعتبار ، كما قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾ .

ثم ثانيًا : إثبات صدق الرسولﷺ وذلك ؛ لأن هذا القصص الحق يتفق مع الصادق من كتب أهل الكتاب يجري على لسان أميٍّ لا يقرأ ولا يكتب ، ولم تُعْرَف ملازمته لأحد من أهل الكتاب حتى يطلعه على ذلك ... .

ثم المقصود ثالثًا : بيان وحدة الشرائع الإلهية السماوية ؛ لأنها جميعا تنبعث عن مصدر واحد ، وهو رب السماوات والأرض وما فيهما ، فبيان قصص النبيين السابقين ، وما كانوا يلقون في الدعوة إلى التوحيد دليل على أن التوحيد هو الوحدة الجامعة بين كل الشرائع وفيه تسلية للنبي ﷺ وتسرية عن شدائده بالاستبصار فيما لقيه غيره من عنت .

هذه تقدمة نقدم بها قصة أولئك الأبرار الأطهار . (١)

لقد بيَّن القرآن الكريم سنة الله في اختيار الرسل فقال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى** ﴾ والمراد أن الله – تعالى – اختار آدم أبًا البشر ، فجعله نبيًّا ، واختار الله نوحًا وجعله أول رسول بعث إلى الناس لما عبدوا الأوثان ، واختار الله للنبوة والرسالة آل إبراهيم الخليل ، ومنهم سيد البشر ، وخاتم

(١) ينظر زهرة التفاسير – محمد أحمد مصطفى : ١١٩٤/٣ – دار الفكر العربيّ .

المرسلين محمد ﷺ ، واصطفى الله من ذرية إبراهيم آل عمران وهو أبو مريم وجد عيسى عليه السلام اختار هؤلاء وجعلهم صفوة الخلق وخيارهم ، وجعل فيهم النبوة والرسالة .

ثم ذكر – تعالى – قصة مريم وأمها فكما أنها ولدت من أم عاقر على خلاف المألوف ، أو المعهود ، وقبلت في خدمة البيت ، بالرغم من أنها أنثى ، فَلِمَ يستغرب المشركون ، واليهود أن يرسل الله نبيًّا عربيًّا ليس من ذرية إسرائيل ؟! .

ثم تأتي قصة زكريا عليه السلام وكفالته لمريم ، وتعجبه من حال مريم البتول القانتة المتفرغة للعبادة ، وما يجده عندها من رزق وفير ، فدعا ربه أن يرزقه ولدا صالحا من ولد يعقوب عليه السلام ، فبشرته الملائكة وهو يصلي في المحراب بيحيى عليه السلام.

مناسبة ﴿ هنالك ﴾ للسياق

﴿ هُنَالِكَ ﴾ الموقع والدلالة :

﴿ هُنَالِكَ ﴾ في موضع نصب لأنه ظرف مستعمل في المكان ، قال تعالى : ﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾[1] وهو إشارة إلى المكان الذي كانوا فيه ... ، ثم قد تستعمل لفظة ﴿ هُنَالِكَ ﴾ في الزمان مجازًا ، قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾[2] فهذه إشارة إلى الحال والزمان . فإن حُمِل اللفظ على المكان فهو جائز ، أي ذلك المكان الذي كان

---

(١) سورة الأعراف آية ١١٩ .

(٢) سورة الكهف آية ٤٤ .

قاعدًا فيه عند مريم – عليهما السلام – ، وشاهد تلك الكرامات دعا ربه ، وإن حملناه على الزمان فهو أيضا جائز، يعني في ذلك الوقت دعا ربه .(١)

ويبدو لي – والله أعلم – أنَّ المناسبة في اختيار لفظة ﴿ هُنَالِكَ ﴾ في هذا السياق الدلالة على سرعة امتثال زكريا للدعاء دون تردد ، بعد أن شاهد تلك الآيات المبهرات ، وحتى لا يدع مجالا للشك بأنه ثمة تراخ في الدعاء ، فكأن ﴿ هُنَالِكَ ﴾ تحيط بمطلق الزمان والمكان الكائنين في هذه اللحظة ، تأكيدا على شدة الامتثال ، وملابسة الدعاء للزمان والمكان ، فكأن تقديم ﴿ هُنَالِكَ ﴾ كما يقول أبو السعود : " للإيذان بأنه أقبل على الدعاء من غير تأخير ، لا على معنى أن ذلك كان هو الموجب للإقبال على الدعاء فقط بل كان جزءًا أخيرًا من العلة التامة التي من جملتها كبر سنه – عليه الصلاة والسلام – وضعف قواه ، وخوف مواليه حسبما فُصِّل في سورة مريم. (٢)

والآيات مستأنفة والقصة مستقلة سيقت في تضاعيف حكاية مريم، لما بينهما من قوة الارتباط وشدة الاشتباك ، مع ما في إيرادها من تقرير ما

---

(١) ينظر معاني القرآن وإعرابه – إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ) ١/٤٠٤ – تحقيق : عبد الجليل عبده شلبي – عالم الكتب – بيروت – الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م ، مفاتيح الغيب ٣ / ٣٥ ، إرشاد العقل السليم ١ / ٣٥٥ ، ونظم الدرر ٤ / ٣٦٣ .

(٢) ينظر إرشاد العقل السليم ١ / ٣٥٥ .

سيقت له حكايتها من بيان اصطفاء آل عمران ، فإن فضائل بعض الأقرباء أدلة على فضائل الآخرين . (١)

و لا نريد الخوض في تعدد الروايات في ذكر السبب وراء دعاء زكريا – عليه السلام فقد أوصله البعض إلى خمسة أسباب. (٢)

غير أن الرازي اعتمد صريح النص ، واعتبره رأي الجمهور الأعظم من العلماء المحققين ، وهو أن زكريا – عليه السلام – رأى عند مريم من فاكهة الصيف في الشتاء ، ومن فاكهة الشتاء في الصيف، فلما رأى خوارق العادات عندها طمع في أن يخرقها الله – تعالى – في حقه أيضًا فيرزقه الولد من الزوجة الشيخة العاقر. (٣)

وما ذكره جمهور المفسرين – كما أشار إليه الرازي– فيه نظر ؛ لأنه إمَّا أن يرى فاكهة الصيف في زمن الشتاء نظرًا لكون زكريا – عليه السلام – في زمن الشتاء ، وإمَّا العكس ، إلا إذا سلمنا أن هذا الأمر – ونحن مسلمون له إن شاء الله – قد تكرر أكثر من مرة على مدار عام كامل ، وهو ما يؤكده قوله : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ... ﴾ أي إنه تكرر منه هذا الفعل وهذا يرجع بنا إلى التردد في لفظة ﴿ هُنَالِكَ ﴾ و ما تفيده من سرعة الامتثال والإقبال على الدعاء ، والذي يظهر لي أنه بعد أن دخل على مريم أكثر من مرة وشاهد هذا الأمر الخارق يتكرر فيرى في فصل الصيف فاكهة الشتاء ، وفي فصل الشتاء فاكهة الصيف ، واستقر هذا الأمر عنده أنه

---

(١) ينظر مفاتيح الغيب ٨ / ٢٥ ،٢٦.

(٢)ينظر مفاتيح الغيب ٨ / ٢٥ ،٢٦.

(٣) ينظر روح المعاني ٣ / ١٤٤ .

خارق للعادة ، أقبل على سؤال مريم ﴿ **أَنَّى لَكِ هَذَا** ﴾ فكان قولها: ﴿ **هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ دليلًا دامغًا وبرهانًا ساطعًا على تحقق دعائه إذا هو دعا ربه ، فأقبل مسرعا من غير تردد إلى دعاء ربه .

كما ضعَّف الرازي الرأي الآخر واعتبره رأي المعتزلة الذين ينكرون كرامات الأولياء ، وإرهاصات الأنبياء ، ومفاده أن زكريا عليه السلام لما رأي آثار الصلاح والعفاف والتقوى مجتمعة في حق مريم عليها السلام اشتهى الولد وتمناه ، فدعا عند ذلك ، والسر وراء تضعيفه كما يقول الرازي: لأن حصول الزهد والعفاف ، والسيرة المرضية لا يدل على انخراق العادات ، فرؤية ذلك لا يحمل الإنسان على طلب ما يخرق العادة ، وأما رؤية ما يخرق العادة قد يطمعه في أن يطلب أيضًا فعلًا خارقًا للعادة ، ومعلوم أن حدوث الولد من الشيخ الهرم ، والزوجة العاقر من خوارق العادات ، فكان حمل الكلام على هذا الوجه – يقصد فاكهة الصيف في زمن الشتاء– أولى . (١)

وأرى – والله أعلم – أن ما ذكره الرازي فيه نظر ، لأننا لو رجعنا مثلا إلى الزمخشري في هذه القضية بالتحديد – وهو كما نعلم معتزلي المذهب – نجده لم يعتمد حصول الزهد ، والعفاف ، والتقوى سببا في دعاء زكريا أمرًا خارقًا للعادة ؛ بل ربطهما بأمر خارق آخر وهو كون أم مريم عاقرًا كزوجته ،

(١) ينظر مفاتيح الغيب ٨ / ٣٥ ، ٣٦ .

ومع ذلك لم ينكر الرأي القائل بأنه لما رأى الفاكهة في غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر ، وإن ذكره مؤخرًا إلا أنه لم يغفله .[١]

والذي يطمئن إليه القلب أن كل هذه الأسباب وغيرها كان حافزًا وباعثًا قويًّا إلى أن يجأر زكريا لربه بالدعاء ، عساه أن يجيب دعاءه ، فالتشابه بين القصتين كائن ، فأم مريم كانت لا تلد ، وأم يحيى عاقر ، وكذلك مشاهدة الآيات البينات ، ورزق مريم في غير أوانه ، كل ذلك كما قلت مدعاة لطلب أمر خارق .

ويطرح الفخر الرازي سؤالًا آخر مفاده : إن قلت إن زكريا عليه السلام ما كان يعلم قدر الله – تعالى – على خرق العادات إلا عندما شاهد تلك الكرامات ، كان في هذا نسبة الشك في قدرة الله – تعالى– عند زكريا عليه السلام .

وإن قلت : إنه كان عالمًا بقدرة الله على ذلك لم تكن مشاهدة تلك الكرامات سببًا لزيادة علمه بقدرة الله – تعالى– .

ويجيب الرازي بقوله : إنه كان قبل ذلك عالمًا بالجواز ، فأمَّا أن يقع أو لا ، فلم يكن عالمًا به ، فلما شاهد عَلِم أنه إذا وقع كرامةً لوليٍّ ، فبأن يجوز وقوع معجزة لنبي كان أولى ، فلا جرم قوى طمعه عند مشاهدة تلك الكرامات .[٢]

---

(١) ينظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل محمود ابن عمر الزمخشري ١ / ٤٢٧

دار المعرفة – بيروت .

(٢) ينظر مفاتيح الغيب ٨ / ٣٥ ، ٣٦ .

وأرى أن هذا أمر طبعيٌّ لا شكَّ ، ولا غيره ، بل إن الإنسان حين يرى الخير والفضل من الله أصاب إنسانا آخر ، يلجأ إلى الله بالدعاء أن يرزقه ، ويفيض عليه من سابغ نعمه ، خصوصا إذا تشابهت الأحوال ، فهذه هي عادة المؤمن ، فما بالنا بالأنبياء- عليهم السلام - ؟ .

فالحكمة كما نبه الطاهر بن عاشور ضالة المؤمن ، وأهل النفوس الزكية يعتبرون بما يرون ويسمعون ، فلذلك عمد إلى الدعاء بطلب الولد في غير إِبَّانِهِ ، ولم يزل أهل الخير يتوخون الأمكنة بما حدث فيها من خير ، والأزمنة الصالحة كذلك ، فما هي إلا كالذوات الصالحة ، في أنها مَحَال تجليات رضا الله .[1]

مناسبة قوله تعالى: ﴿ دعا زكريا ربه ﴾

التعبير بالدعاء

إن التعبير بالدعاء مشعرٌ بمبلغ الافتقار إلى المدعوِّ ، وتعلق هذا الدعاء بالله – تعالى – فالدعاء هو مخ العبادة ، ومجيء الدعاء بصيغة الماضي دليل على تحقق هذا الدعاء منه .

وإضافة الدعاء إلى الرب فيه إشارة إلى شعوره بمعاني ربوبيته – تعالى – على كل شيء ، ولو كان هذا الأمر خارقًا للعادة ؛ لأنه يطمع في الإحسان إليه بهبته الولد مع فقد الأسباب ، وكأنه يقول له : أنت وليُّ الإحسان والإنعام ، فأحسن عليَّ وأنعم وهَبْ لي ذرية طيبة .

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ٣ / ٢٣٨ .

ومما يجدر التنبيه إليه أن النظم القرآني التزم في الدعاء اسم « رب ، وربنا » دون اسم آخر من أسمائه الحسنى ؛ لأن صفة الربوبية – بما فيها من معاني التربية والإنعام ، والتفضل – وهي آثار لا تنقطع دنيا وأخرى – أنسب وفيها اعتراف بالربوبية ولجوء إلى مصدر الخير أملا في الإجابة . ولم يذكر وصفًا آخر إلا في موطن واحد في سورة يوسف من دعائه ختاما لأحداث قصته المثيرة التي خطتها يد القدر في حكمة وسطوة وعناية .

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فقد بدأ بالاسم « رب » ثم « فاطر » أي يا فاطر السماوات والأرض ، وهذا مناسب لعظيم العطاء والاقتدار على النعم الخاصة في أحداث القصة المحكمة من إخراجه من السجن ، وإيتائه الملك ، وتعليمه التأويل ، كما أنه مناسب لحكمة يوسف في جوامع دعائه(١).

مناسبة وضع الظاهر موضع المضمر

إن إدراك السر البلاغي في وضع الظاهر موضع المضمر يتوقف على معرفة أبعاد السياق الذي يرد فيه هذا العدول التركيبي ، ويتجلى التناسب بين المعنى والمبنى الذي لا يتحقق بمعزل عن هذا العدول .

---

(١) ينظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم د . صبَّاح دراز : ٦٦ ، ط : ١ ، ١٤٠٦ هـ ، مطبعة الأمانة .

ففي قوله تعالى : « زكريا » إظهار في موطن الإضمار؛ لِسَبْقِ ذكره في الآية السابقة ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ** ﴾[1]، وكان من الممكن أن يأتي النظم الكريم « هنا لك دعا ربه » وأرى أنه عدل إلى الاسم الظاهر لما يحمله هذا الاسم من دلالة على اختصاصه عليه السلام بهذا الدعاء ، وأن هذا الأمر منوط به دون غيره ، وفيه إشارة إلى ظهوره في القصة ، وحتى تكون بداية قصة مستقلة بذاتها .

كما أن إظهار لفظ « **رب** » في قوله: ﴿ **قال رب** ﴾ وكان مقتضى الظاهر أن يقال : « **هب لي** » تأكيدًا على استحضار معاني التربية والإحسان ، فتكرار لفظ « رب » مرتين متتاليتين ينبئ عن مدى إحساسه عليه السلام بصعوبة الأمر ، وأن هذا الأمر لا يتحقق ولا يكون إلا من رب عظيم محسن إليه ، وفيه إشعار بإلحاحه على ربه بالدعاء ، طمعا في الإجابة ، وهو مطلوب في باب الدعاء.

مناسبة حذف حرف النداء وياء المتكلم

إن الناظر في قوله تعالى حكاية عن زكريا:﴿ **قال رب هب لي** ﴾ يرى أن كلمة « رب » جاءت منادى ، مضافًا إلى ياء المتكلم المفرد ، محذوفًا منه حرف النداء « يا » إشارة إلى قربه – تعالى – منه ، وتعلق قلبه به ، وثقة في إجابة دعائه ، وأنه – تعالى – لا يتخلى عنه .

وفي ذلك تيسير في الأداء ؛ لأن توجيه الدعاء إلى «" رب » كثير على ألسنة العباد ، فناسب ذلك التيسير عليهم وهم يتضرعون إلى ربهم

---

(١) ينظر سورة آل عمران آية ٣٧ .

القريب منهم ، والياء لمناداة البعيد ، والله – تعالى – أقرب إليهم من حبل الوريد .

والذي سوَّغ هذا الحذف – فوق ما تقدم أن المقام يدل على المحذوف بكل وضوح ويسر .

وعلى هذا نجد أن من سمات المنهج القرآني في كلمة « رب » إذا وقعت منادى مضافا إلى ضمير المتكلم المفرد – مذكرا أو مؤنثا – أن يحذف منها حرف النداء ، والمضاف إليه مع الاجتزاء منه بالكسرة .

أما ما ورد بإثبات « يَا » كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢)، فإن المعنى الذي استعملت فيه يغلب عليه الدعاء ، ويقل فيه غير الدعاء . (٣)

مناسبة لفظ الهبة والتعبير بـ " لدن " للمقام

لقد أفصح الألوسي عن بيان السر من وراء مجيء الطلب بلفظ الهبة ؛ لأن الهبة إحسان محض ليس في مقابل شيء ، وهو يناسب ما لا دخل فيه للوالد لكبر سنه ، ولا للوالدة لكونها عاقرًا

---

(١) سورة الفرقان آية ٣٠ .

(٢) سورة الزخرف آية ٨٨ .

(٣) ينظر دراسات جديدة في إعجاز القرآن ، د عبد العظيم المطعني : ٢٧٣ – ٢٧٤ ، مكتبة وهبة ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ . والأساليب الإنشائية : ٦٦ .

فكأنه قال : أعطني ذرية من غير وسط معتاد .[١]

والذي يبدو لي – والله أعلم – أن لفظ الهبة غير مختص بانقطاع الأسباب فقط ، لأن الذي يملك الاستعداد للإنجاب لا يكون هذا الأمر حقا له ، فلا بد أن يعرف أن عطاء الله له يظل هبة ، فإيَّاك أن تظن أن اكتمال الأسباب والشباب ، هي التي تعطي الذرية ، إن الحق سبحانه ينبهنا ألا نقع في خديعة وغش أنفسنا بالأسباب ، قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[٢]، إن في ذلك لفتا واضحا وتحذيرا محددا ألا نفتتن بالأسباب ، إذن فكل عطاء من الله هو هبة ، والأسباب لا تعطي أحدا ما يريد .[٣]

والمراد بالأمر في قوله : « هب » الدعاء ، والسر في خروج الأمر هنا عن معناه إلى الدعاء ، إشارة إلى أنه يضع كل أمله في الله ، وكأنه يقول : إنك يارب من فور أن تسمعني ستجيبني إلى طلبي بطلاقة قدرتك ؛ لأنك تعلم صدق نيتي في أنني أريد الغلام لا لشيء من أمور الدنيا كقرة العين ، والذكر ، والعز ، وغيرها ، إنما أريد الولد ليكون وارثًا لي في حمل منهجك في الأرض.[٤]

---

(١) ينظر روح المعاني ٣ / ١٤٤.

(٢) سورة الشورى الآيتان ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) ينظر تفسير الشعراوي : الخواطر لمحمد متولي الشعراوي : ١٤٤٣/٣ ، ١٤٤٤ ، مطابع أخبار اليوم ١٩٩٧ م .

(٤) ينظر تفسير الشعراوي : ١٤٤٤/٣ .

وتقديم ضمير الداعي « لي » على المفعول وهو ذات الدعاء أملًا في الإجابة ، وطمعًا في الرحمة ، وتصويرًا لأشواق النفس حين تضع آمالها على باب الكريم المنَّان .

و « من » لابتداء الغاية ، أي أعطني من عندك ذرية طيبة أي مباركة ، وقيل : صالحة تقية نقية العمل ، ويجوز أن يتعلق الجار والمجرور بمحذوف وقع حالا من ذرية .(١)

والتعبير بـ « لدن » التي هي للأمر الباطن دون « عند » التي هي للأمر الظاهر ، إشارة إلى أن حصول الولد في العرف والعادة له أسباب مخصوصة ، فلما طلب الولد مع فقد الأسباب كان المعنى : أريد منك إلهي أن تعزل الأسباب في هذه الواقعة ، وأن تحدث هذا الولد بمحض قدرتك من غير توسط شيء من هذه الأسباب ، أي إن السبب يكون عندك لا من عندي ؛ لأن الأسباب عندي قد زالت ، ولم يعد إلا سبب منك ، وإلا معجزة تكون فيها المانح المعطي من غير علة أو ترتيب .

والتعبير بـ « لدنك » التي لا تكاد تستعمل في القرآن إلا في جانب الله تعالى يفيد العندية العالية السامية .(٢)

مناسبة لفظ " ذرية " للسياق

دلالة لفظ " ذرية "

(١) ينظر إرشاد العقل السليم ١ / ٣٥٥ وروح المعاني ٣ / ١٤٤.

(٢) ينظر تفسير زهرة التفاسير : ١٢٠٣/٣ ، والشعراوي : ١٤٤٤/٣ .

اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر أو أنثى ، وفي الحديث : " أنه رأى امرأة مقتولة فقال : ما كانت هذه تقاتل ... خالد فقل له لا تقتل ذرية ولا عسيفا " [1]، قال ابن الأثير : المراد بها في هذا الحديث (النساء) لأجل المرأة المقتولة .

والذرية : ولد الرجل ، وقد يطلق على الأصول والوالدين أيضا فهو من الأضداد .[2]

وما عليه جل المفسرين الذرية النسل تقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى، والمراد ولد واحد. [3]

والسؤال الذي يشغل الخاطر ، ويجول في ذهن كل قارئ ومتأمل في القرآن الكريم ، هو سر إيثار النظم الكريم لفظ "ذرية" دون غيره ، كولي مثلا كما جاء في سورة مريم : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾[4] أو كما جاء في سورة الأنبياء ﴿ رب لا تذرني فردا... ﴾[5]

---

(١)أخرجه ابن حبان في صحيحه كتاب السير حديث رقم ٤٧٨٩ بلفظ :"فلا تقتلوا ذرية ولا عسيفا ..." ينظر صحيح ابن حبان لمحمد بن حبان التميمي مؤسسة الرسالة بيروت ت: شعيب الأرنؤوط ١٤١٤/١٩٩٣هـ .

(٢) ينظر تاج العروس ، ولسان العرب مادة ذرأ .

(٣) ينظر مفاتيح الغيب ٨ / ٣٦ والكشاف ١ / ٤٢٨ وروح المعاني ٣ / ١٤٤ .

(٤) سورة مريم آية ٥ .

(٥) سورة الأنبياء آية ٨٩ .

بمطالعة أقوال المفسرين لم يجد الإنسان بغيته ، في تجلية هذا السر الدقيق ، فنجد الرازي بعد أن بين أن الذرية النسل ، وهو لفظ يقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى ، يصرح بالمثلية ، أي إن لفظ « ذرية » ، مثل لفظ « ولي » فيقول : " والمراد منه ههنا : ولد واحد ، وهو مثل قوله: ﴿ **فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا** ﴾[١][٢] .

ما ذكره الرازي لا جدال فيه فإن المراد ولد واحد ، ولكن ما السر في إيثار النظم لفظ « ذرية » دون غيره ؟ وهو ما لم يفصح عنه .

ولو انتقلنا إلى الألوسي نجده يقف عند بيان أنَّ دعاء زكريا جاء في ثلاث صيغ : **إحداها** هذه ، **والثانية** : ﴿ **إني وهن العظم مني** ﴾ سورة مريم ، **والثالثة** : ﴿ **رب لا تذرني فرداً** ﴾ سورة الأنبياء ، ودلالة ذلك عنده أن الدعاء تكرر منه ثلاث مرات في كل مرة بصيغة ، ويدل على أن بين الدعاء والإجابة زمان، وفيه منع ظاهر لجواز أن تكون الصيغ الثلاث حكاية لدعاء واحد ، مرة على سبيل الإيجاز ، وتارةً على سبيل الإسهاب ، وأخرى على سبيل التوسط .[٣]

---

(١)سورة مريم آية ٥ .

(٢) ينظر مفاتيح الغيب ٨ / ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) ينظر روح المعاني ٣ / ١٤٤ ، ١٤٥ .

ويرى القرطبي أن الذرية هنا يقصد بها الواحد، وذلك أن الله ﷻ قال في موضع آخر مخبرا عن دعاء زكريا: ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾[1] ولم يقل أولياء، فدل على أنه سأل واحدا[2].

ويبدو لي – والله أعلم – أن السر في إيثار النظم الكريم لفظ « ذرية » في سياق سورة آل عمران له مناسبتان : إحداهما لفظية ، والأخرى معنوية .

أما **اللفظية** فهي لمناسبة تكرار لفظ الذرية من بداية قصة الاصطفاء ، قال تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾[3] وقال تعالى: ﴿... وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[4] فتكرار لفظ الذرية أكثر من مرة يحدث من الانسجام والتآلف التام ، وتلاحم الأجزاء ، فكان القصص من واد واحد ، وله دلالة واحدة وهي الرغبة في النسل والإنجاب .

أما عن المناسبة المعنوية : أرى – والله أعلم – أن في إيثار لفظ الذرية في سورة آل عمران دون غيره ، أدب قرآني رفيع ، يجب على المسلم أن يتأسى به ، لأنه لما كان لفظ الذرية يقصد به النسل ، ويقع على الواحد

---

(١) سورة مريم آية ٥ .

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن المسمى تفسير القرطبي – أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) ٧٢/٤ – تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش – دار الكتب المصرية – القاهرة – الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م .

(٣) سورة آل عمران آية ٣٤ .

(٤) سورة آل عمران آية ٣٦ .

والجمع ، والذكر والأنثى ، كان التعبير به هنا أولى من وجهين ، أولهما بعيد ، والثاني قريب ، أما **أولهما** : فهو مراعاة لحال امرأة عمران لأنها كانت تطلب الولد لتحريره لخدمة بيت المقدس ، فأتت أنثى على خلاف ما تترقب ، فكان التعبير بالذرية المفيدة العموم فيه نوع من الأدب الرفيع ، مراعاة لهذه الحالة .

ثانيهما : أن مريم وهي أنثى كانت في كفالة زكريا عليه السلام ولو سلمنا أن الدعاء كان في نفس اللحظة ، وفي نفس المكان وهو ما ينبئ عنه لفظ ﴿**هُنَالِكَ**﴾ وذلك بعد سؤال زكريا لمريم ﴿ **أَنَّى لَكِ هَذَا** ﴾ وإجابتها التي فتحت له الطمع في رحمة ربه ﴿ **هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ ، إذا سلمنا بذلك ونحن مسلمون به ، يكون التعبير بالذرية هو الأنسب للمقام ، مراعاة لحال مريم وكونها أنثى ، وحتى لا تحدثها نفسها أن زكريا يفضل الولد على الأنثى ، فيكون فيه نوع من التقليل ، فكان التعميم بالذرية أولى وأوقع .

وهذا يدعونا إلى أن نتعلم من القرآن الكريم هذه الآداب العليا ، والمثل الفضلى ، وأن نراعي شعور الآخرين حتى ولو كنا في أشد الحاجة إليه ، فلا نصرح لهم بما يحدث أدنى ألم أو سوء ، هكذا علمنا القرآن ويعلمنا ، متمثلا في دعاء زكريا البديع النظم العجيب التأليف ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا .

وأنث ﴿ **طَيِّبَةً** ﴾ لتأنيث الذرية في الظاهر ، والتأنيث والتذكير تارة يجيئان على اللفظ ، وأخرى على المعنى ، هذا في أسماء الأجناس كما في قوله :

أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال

بخلاف الأعلام ، فإنه لا يجوز أن يقال : جاءت طلحة ؛ لأن اسم العلم لا يفيد إلا ذلك الشخص ، فإذا كان مذكرا لم يجز فيه إلا التذكير(١).

والسر في تقييد الذرية بكونها طيبة ، أنها هي التي يرجى منها خيرا الدنيا والآخرة ، بحصول الآثار الصالحة النافعة .

وإذا كان التأنيث يفيد الضعف ، فما السر هنا في مجيء الذرية الطيبة بصيغة التأنيث؟ والذي يبدو لي – والله أعلم – أن التأنيث في الذرية الطيبة موح بأن دعاء زكريا عليه السلام كان هو الأول من نوعه بعد انقطاع الأسباب فكان يدعو الله على استحياء خوفا من عدم الإجابة ، لكون الأسباب منقطعة ، أو أنه في بادئ الأمر دعا الله أن يرزقه ذرية ولدا كان أم أنثى ، فلما قوي رجاؤه برحمة الله الواسعة ، دعا الله أن يرزقه وليا ليحمل ميراث النبوة ، أو إن شئت فقل هو من باب الترقي في الدعاء ، وهو ما أميل إليه .

مناسبة الفاصلة " إنك سميع الدعاء "

عقب دعاء زكريا بتذييل أكد مضمون الدعاء ، وقوى الأمل في الإجابة ، وهو تذييل جارٍ مجرى المثل ؛ لأنه يصلح النطق به لحاله ، ثم انظر إلى كثرة المؤكدات فأكد الجملة بـ ﴿ إِنَّ ﴾ واسميتها للدلالة على الثبوت والدوام، ثم التعبير بصيغة المبالغة ﴿ سَمِيعُ ﴾ وما فيها من تقوية الأمل في

(١) ينظر روح المعاني ٣ / ١٤٥ ومفاتيح الغيب ٨ / ٣٦ ، ٣٧ وإرشاد العقل السليم ١ / ٣٥٥ .

الإجابة، وكذلك دلالة الخطاب في« إنك » وما يشعر به أنه حاضر في ذهنه وخاطره.

فليس المراد بـ ﴿ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ ، أنه يسمع صوت الدعاء فذلك معلوم ، بل المراد منه أن يجيب دعاءه ، ولا يخيب رجاءه ، والجملة تعليل لما قبلها وتحريك لسلسلة الإجابة ، وفي ذلك اقتداء بجده الأعلى إبراهيم عليه السلام إذ قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [١] فالصيغة تفيد قرب الرجاء وإمكان الإجابة[٢].

ومما يجدر التنبيه إليه ، هو هيمنة صفة السمع وحضورها من بداية قصة الاصطفاء ، قال تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ ... فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[٤]

مناسبة الإجابة للدعاء

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي ﴾[٥]

---

(١) سورة إبراهيم آية ٣٩ .

(٢) ينظر مفاتيح الغيب ٨ / ٣٧ وروح المعاني ٣ / ١٤٥ وإرشاد العقل السليم ١ / ٣٥٥ .

(٣) سورة آل عمران آية ٣٤ .

(٤) سورة آل عمران آية ٣٥ .

(٥) سورة آل عمران آية ٣٩.

إنها الإجابة التي لا تتقيد بسن ، ولا تتقيد بمألوف الناس ؛ لأنها تنطلق من المشيئة المطلقة التي تفعل ما تريد ، لقد استجيبت الدعوة المنطلقة من القلب الطاهر ، الذي عَلَّق رجاءه بمن يسمع الدعاء ، ويملك الإجابة حين يشاء .

والمراد بيانه هنا هو دلالة الفاء في قوله : « فنادته » ، فهل كان النداء عقب الدعاء مباشرة أم لا ؟ ، وإن لم يكن عقب الدعاء مباشرة فما دلالة الفاء هنا ؟

لقد ذكر الله تعالى في كيفية دعاء زكريا عليه السلام ثلاث صيغ ، فدل على أن الدعاء تكرر منه ثلاث مرات كل مرة بصيغة ، ويدل على أن بين الدعاء والإجابة زمنا ، ويصرح به ما نقل في بعض الآثار أن بينهما أربعين سنة .

وقيل: إن الفاء هنا دلت على أنه دعاء واحد متعقَّب بالتبشير، في قوله: ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾

وفي قوله: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى ﴾[1] وظاهر قوله جل شأنه في مريم : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾[2] اعتقاب التبشير الدعاء لا تأخره عنه ، والأثر الوارد أنَّ بين الدعاء والإجابة أربعين سنة لم نجد له أثرًا في الصحاح[3].

---

(١) سورة الأنبياء آية ٩٠ .

(٢) سورة مريم آية ٧ .

(٣) ينظر روح المعاني ٣ / ١٤٥ .

وقيل : الفاء في هذه الآية للسببية ، « فنادته » أي فتسبب عن دعائه وحسن رجائه أن نادته الملائكة[١]. وفاء السببية لا تستلزم التعقيب ، بدليل صحة قوله : « إن يسلم يدخل الجنة » ومعلوم ما بينهما من المهلة .

والذي يبدو لي – والله أعلم – أن الفاء أفادت التعقيب ، وهي نظير قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً** ﴾[٢]، لقد طوت الفاء هذا الزمن الكائن بين دعاء زكريا ، ونداء الملائكة ، وأخفته بدلالتها على التعقيب ، لتحقق هذا الغرض .

وفي قوله: « فنادته » محذوف كثير دل ماذُكِرَ عليه ، تقديره ، فقبل الله دعاءه ، ووهبه يحيى ، وبعث الملك أو الملائكة بذلك فنادته.

وقوله تعالى : ﴿ **فنادته** ﴾ عبارة تستعمل في التبشير ، وفيما ينبغي أن يسرع به ، وينهي إلى نفس السامع ليسر به[٣].

ولنا هنا وقفة في نسبة النداء إلى الملائكة، أخاطبه بهذا عدد منهم؟، أم كان المخاطب واحدًا؟

لقد أجاب المفسرون عن ذلك بوجهين .

الوجه الأول : أن الذي ناداه هو جبريل ، الذي ينزل بالوحي على النبيين ، وهو جائز في كلام العرب ، يقال خرج فلان على بغال البريد ، وإنما ركب بغلًا واحدًا ، وركب السفن ، وإنما ركب سفينة واحدة ، وكما يقال: ممن

---

(١) ينظر نظم الدرر ٤ / ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

(٢) سورة الحج آية ٦٣ .

(٣) ينظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١ / ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

سمعت هذا ؟ فيقال من الناس ، وإنما سمعه من رجل واحد ، وقد قيل منه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ ... ﴾[1] والقائل فيما ذكروا كان واحدًا .

وقيل هو من قبيل إسناد فعل الواحد إلى قبيلته ، كقولهم : قتلت بكرٌ كليبًا ، ومما يؤكده قراءة حمزة ، والكسائي ، وخلف : فناداه الملائكة ، على اعتبار المنادِي واحدًا ، وهو جبريل[2] وعبر عن جبريل بلفظ الجماعة تعظيمًا له .[3]

الوجه الثاني : أن المراد الجمع من الملائكة ، وهو ما رجحه ابن جرير ، فنجده يقول : والصواب من القول في تأويله ، بأن يقال : إن الله جل ثناؤه أخبر أن الملائكة نادته ، والظاهر من ذلك أنها جماعة من الملائكة دون الواحد ، وجبريل واحد .

ولا يجوز أن يحمل تأويل القرآن ، إلا على الظاهر الأكثر من الكلام المستعمل في ألسن العرب دون الأقل ، ما وجد إلى ذلك سبيل ، ولم تضطرنا حاجة إلى صرف ذلك إلى أنه بمعنى واحد ، فيحتاج له إلى طلب بالخفي من الكلام والمعاني ، وهو ما قال به جماعة من أهل العلم ، منهم قتادة ، والربيع[4]. وهو ما نميل إليه .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٧٣ .

(٢) ينظر التحرير والتنوير ٣ / ٢٣٩ .

(٣) ينظر روح المعاني ٣ / ١٤٥ وإرشاد العقل السليم ١ / ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

(٤) ينظر جامع البيان جامع البيان في تأويل القرآن – محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) ٣٦٥/٦ – ت أحمد

ومما يؤكد ذلك أن الله بعث ملائكة إلى لوط ، وإلى إبراهيم عليهما السلام قال تعالى :

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۞ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾[١] وقال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾[٢] ولا شك أن العدد فيه مبالغة بالتبشير، وكأن حال هذا النبي الكريم في يأسه من الولد لشيخوخته الفانية، وكون امرأته عاقرًا، وعجوزًا، كان يحتاج فيها إلى عدد من المبشرين ليزول من نفسه كل يأس، ويحل محله الرجاء.[٣]

وبالتدبر في القرآن الكريم نجد أن الملائكة تأتي بالتذكير مرة ، وبالتأنيث أخرى ، قال تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[٤]، فجاءت الملائكة هنا بالتذكير ، وجاءت بالتأنيث في موضوع الدراسة : ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ .

من الناحية النحوية ، يمكن أن يؤنث الفعل أو يذكر ، إذا كان الفاعل جمع تكسير ، كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ﴾[٥] وقوله

محمد شاكر – مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م ، ومفاتيح الغيب ٨ / ٣٧ ، ٣٨ والكشاف ١ / ٤٢٨ ، وروح المعاني ٣ / ١٤٥ .

(١) سورة الحجر آية ٥١ ، ٥٢.

(٢) سورة الذاريات آية ٢٤.

(٣) ينظر زهرة التفاسير ١٢٠٥/٣ .

(٤) سورة ص آية ٧٣.

(٥) سورة الحجرات آية ١٤.

تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾[1] ، فيجوز التذكير والتأنيث من حيث الحكم النحوي .

أمَّا لماذا اختار الله تعالى التأنيث في موطن والتذكير في موطن آخر، فهو لأن في الآيات خطوطا تعبيرية هي التي تحدد تأنيث وتذكير الفعل مع الملائكة ، وهذه الخطوط هي :

في القرآن الكريم كله كل فعل أمر يصدر إلى الملائكة يكون بالتذكير " **اسجدوا ، أنبئوني ، فقعوا له ساجدين** " .

كل فعل يقع بعد ذكر الملائكة يأتي بالتذكير أيضا ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾[3]

كل وصف اسمي للملائكة يأتي بالتذكير « الملائكة المقربون » ، « الملائكة باسطو أيديهم » « مسومين ، مردفين ، منزلين » .

وكل فعل عبادة يأتي بالتذكير ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾[4] ، ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا

(١) سورة يوسف آية ٣٠ .
(٢) سورة الرعد آية ٢٣ .
(٣) سورة النساء آية ١٦٦ .
(٤) سورة الحجر آية ٣٠ .

يُؤْمَرُونَ ﴾[١] ؛ لأن المذكر في العبادة أكمل من عبادة الأنثى ، ولذلك جاء الرسل كلهم رجالا .

ومن اللافت للانتباه ، لم تأت بشرى بصيغة التذكير أبدًا في القرآن الكريم ، فكل بشارة في القرآن الكريم تأتي بصيغة التأنيث ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ ، ﴿ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ ﴾[٢]

والسر من وراء جمع الملائكة في سياق قصة زكريا عليه السلام أنَّ من كمال عناية الله – تعالى – بعبده إلقاء البشرى إليه بعدد كبير من الملائكة لا واحد منهم .

ولقد ذهب الشيخ الشعراوي في بيان قوله تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ منحًى جديدًا لقد جاء هذا القول الحق لنفطن إلى شيء هو أن الصوت في الحدث – كالإنسان – له جهة يأتي منها ، أما الصوت القادم من الملأ الأعلى فلا يعرف الإنسان من أين يأتيه ، إن الإنسان يسمعه ، وكأنه يأتيه من كل الجهات ، وكأن هناك ملكًا في كل مكان .

والعصر الحديث الذي نعيشه قد ارتقى في الصوتيات فوصل لدرجة أن الإنسان أصبح قادرًا على جعل المؤثر الصوتي يحيط بالإنسان من جهات

---

(١) سورة التحريم آية ٦ .

(٢) ينظر لمسات بيانية في نصوص من التنزيل د. فاضل السامرائي ٤٦ – دار عمار للنشر ط ٣ ، ١٤٣٣ هـ .

متعددة ، إذًا فقول الحق : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ يعني أن الصوت قد جاء لزكريا من جميع الجهات . (١)

مناسبة الجملة الحالية ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ ﴾ للسياق

لقد أفصح الطاهر بن عاشور عن سر التعبير بالجملة الحالية بقوله: " والمقصود من ذكرها بيان سرعة إجابته ؛ لأن دعاءه كان في صلاته " .(٢)

والذي يبدو لي – والله أعلم – ليس المقصود ههنا بيان سرعة الإجابة ، بل بيان سرعة التبشير ، إذ بيَّن التبشير والإجابة زمن ، وهو ما أكدت عليه في بيان معنى الفاء في قوله : ﴿ فَنَادَتْهُ ﴾ ولقد كان العلَّامة أبو السعود أدقَّ في تعبيره حين قال : " ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ ﴾ جملة حالية من مفعول النداء مقررة لما أفادته الفاء من حصول البشارة عقب الدعاء".(٣)

وفي التعبير عن الصلاة بالقيام إشعار بأن حكم القيام غالب عليها(٤)وهو من باب المجاز المرسل لعلاقة الجزئية ، أطلق الجزء (القيام)، وأراد الكل ؛ لأن القيام هو أغلب أعمال الصلاة ومن أركانها الأساسية ، وفي إيثار اسم الفاعل ﴿ قَائِمٌ ﴾ دلالة على الملازمة والثبوت على أمر الصلاة لله – جل وعلا – ، والقيام بين يديه ، ومن أمر إقباله على الدعاء من غير تأخير .

---

(١) ينظر تفسير الشعراوي ١٤٤٥/٣ .

(٢) ينظر التحرير والتنوير ٣ / ٢٣٩ .

(٣) ينظر إرشاد العقل السليم ١ / ٣٥٦ .

(٤) ينظر نظم الدرر ٤ / ٣٦٥ .

وليس المقصود في التعبير بالمضارع « يصلي » الاستمرار التجددي؛ لأنه يتنافى مع دلالة الجملة الحالية ، بل المقصود استحضار صورة القيام في هذه الصلاة ، وما كان عليه زكريا عليه السلام من ملازمة القيام والصلاة واللجوء إلى الله بالدعاء في الصلاة ، ثم نجد دلالة الظرف « فِي » وما تحمله من كون المحراب حوى زكريا واشتمل عليه ، وكأنه لكثرة وقوفه في المحراب للصلاة أصبح جزءًا منه مظروفًا فيه .

ثم تأتي جملة البشارة ﴿ **أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى** ﴾ مؤكَّدَة بأكثر من مؤكِّد ؛ لأن الأمر يستدعي كل هذه المؤكدات فهو خارق للعادة ، فأكدت الجملة بـ « إِنَّ » ، واسمية الجملة الدالة على ثبوت ودوام البشارة لزكريا من الله ، ثم حضور لفظ الجلالة « اللَّه » الموحي بالعظمة ، وأن هذا الأمر لا يكون إلا من إله خالق ، قادر ، عليم.

والبشارة الخبر الذي يظهر السرور فهي أخص من الخبر، ولهذا قال الفقهاء : إذا قال لعبيده: أيكم بشرنى بقدوم فلان فهو حر، فبشروه فرادى عُتِقَ أولهم ؛ لأنه هو الذي أفاد خبر السرور، ولو قال مكان بشرني: أخبرني عُتِقُوا جميعًا؛ لأنهم جميعًا أخبروه ، فالبشارة أخص من الخبر(١).

ومما يؤكد ما ذهبت إليه من كون البشارة لا تستلزم الإجابة على الفور، بل بينهما مدة ، هو مجيء لفظ البشارة بصيغة المضارع الدال على الاستمرار التجددي ، فبشارة الله لزكريا عليه السلام ليست على معنى إجابة دعوته في الحال ، إذ من المعلوم أن بين البشارة والولادة زمن ، كما تقول لفلان : أبشرك بالنجاح ؛ لكونك شاهدت أسباب النجاح في هذا الشخص ، فليس على معنى

(١) ينظر الكشاف ١ / ٤٢٨ ومفاتيح الغيب ٨ / ٣٨ والتحرير والتنوير ٣ / ٢٣٩.

أن نجاحه تحقق في هذه اللحظة ، أو أن الله بشر زكريا عليه السلام فأنجب ، بل يجوز أن يكون هناك فترة من الزمن ، وهذا ما دعا زكريا عليه السلام إلى إعادة الدعاء في أكثر من موطن في النظم الكريم ، وهو ما أكده الشعراوي بأن البشارة « إخبار بخبر زمنه لم يأت »[1].

ولا بد من التنبيه هنا على سر التعبير بضمائر الغيبة في قوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ﴾ .

والذي يظهر لي أن ضمائر الغيبة تضفي على السياق جوًّا من الهيبة والوقار المطلوبين في هذا المشهد الغيبيِّ الخارق للعادة ؛ فلما انتقل للبشارة آثر النظم الكريم الخطاب ، فالتفت من الغيبة إلى الخطاب في قوله : ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ ﴾ لحضوره في عملية التبشير وظهوره ، ولأن الأمور المهمة حقها أن يؤمر بها مواجهة ، من غير واسطة .

مناسبة حذف المضاف للسياق

إن قوله تعالى : ﴿ بِيَحْيَى ﴾ متعلق ببيبشرك ، ولا بد هنا من حذف مضاف أي بولادة يحيى ، لأن الذوات ليست متعلقة بالبشارة ، ولا بد في الكلام من شيء عاد إليه السياق ، تقديره : بولادة يحيى منك ، ومن امرأتك ، دل على ذلك قرينة الحال والسياق[2] ، ومناسبة الحذف هنا سرعة التبشير بالإجابة ، وكأن النظم الكريم يطوي كل شيء من حدوث حمل ، وولادة ،

---

(١) ينظر تفسير الشعراوي ١٤٤٦/٣ .

(٢) ينظر البحر المحيط أبي حيان الأندلسي ٢ / ٤٤٦ ، ٤٤٧– دار الفكر بيروت ، وإرشاد العقل السليم ١ / ٣٥٦ .

للوصول إلى الغرض المنوط به الكلام وهو ﴿ يَحْيَى ﴾ ، ولأن بشارة الله أو أمره أن يقول : كن فيكون هو شيء مفروغ منه بأنه متحقق في أمر الله .

وسمي يحيى ؛ لأن الله – تعالى – أحيا به عقر أمه ، أو لأن الله أحيا قلبه بالإيمان ، أو حَيِيَ بالعلم ، قال القرطبي : كان اسمه في الكتاب الأول حيا(١).

وقوله تعالى : ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ حال مقدرة ، وقال ابن عطية : هي حال مؤكدة بحسب حال هؤلاء الأنبياء(٢) ، وسر التعبير بالحال هنا دلالة على أنه كامل التوفيق لا يتردد في كلمة تأتي من عند الله .

واختلف المفسرون في بيان قوله : ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾، لاختلافهم في معنى ﴿ كَلِمَةٍ ﴾ ، فمنهم من اتجه إلى أن كلمة الله هو المسيح عيسى ابن مريم ، وهو يقول ما قاله تعالى بعد ذلك لمريم ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾(٣) ويكون المدح فيه حينئذ بأنه صدق عيسى ، وأذعن للحق ، إذ تبين له ، فلم يكن من المعاندين الذين يجحدون بآيات الله ، واعتبر الرازي هذا الرأي هو رأي الجمهور ، وذكر في سر تسمية عيسى عليه السلام خمسة وجوه منها أنه خلق بكلمة الله وهو قوله : « كن » ، أو أنه تكلم في طفولته ، أو أن

---

(١) ينظر البحر المحيط / ٤٤٦ – ٤٤٧ ، وإرشاد العقل السليم ١ / ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ومن إعجاز القرآن في أعجمي القرآن ٢ / ٢٣٣ – ٢٣٨ .

(٢) ينظر البحر المحيط ٢ / ٤٤٧ وإرشاد العقل السليم ١ / ٣٥٧ .

(٣) سورة آل عمران آية ٤٥ .

الكلمة كما تفيد المعاني والحقائق ، كذلك عيسى كان يرشد إلى الحقائق والأسرار الإلهية ، وقيل إنه قد وردت البشارة به في كتب الأنبياء الذين قبله، فلما جاء قيل: هذا هو تلك الكلمة.(١)

ومن المفسرين من قال : إن المراد من كلمة الله تعالى كتابه ، وذلك لأن الكلمة تطلق ويراد بها الجمع ؛ إذ المقصود التوراة ، والإنجيل وغيرها من كتب الله – تعالى – المنزلة ، فعبر عن الجمع ببعضه ، ومثل هذا قوله عليه السلام : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد » يريد قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وذكر لحسان رضي الله عنه الحويدرة الشاعر فقال : « لعن الله كلمته » يعني قصيدته ، من باب المجاز المرسل لعلاقة الجزئية لإبراز أهمية الكلمة وأثرها في تكوين الكل .

أرى – والله أعلم – أن الرأى الأول مبني على قرينة السياق ، والرأي الثاني مبني على دلالة اللغة ، والرأي الأولى بالقبول عندي هو الرأي الأول ؛ لأنه في هذا المقام ذكرت كلمة الله على أنها المسيح عليه السلام قال تعالى : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ﴾ (٢) ، والاسم المكرر في مقام واحد تكون فيه وحدة المقام دليلًا على وحدة المسمى ، وكان في هذا التعبير

---

(١) ينظر مفاتيح الغيب ٨ / ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) سورة آل عمران آية ٤٥ .

إيذان بأن ولادة المسيح ستكون قريبة من ولادة يحيى ، وفيه إيماء إلى أن زكريا نبي الله قد أوتي علمًا بأن المسيح عهده قريب(١).

و « من » في قوله « منه » لابتداء الغاية مجازًا ، متعلقة بمحذوف وقع صفة لكلمة ، أي بكلمة كائنة منه تعالى(٢).

والسر في إيثار النظم الكريم « مِنْ » هنا دون أن يكون « بكلمة الله» بحذف « مِنْ » مثلا ، إشعار بإحاطته في ذات الكلمة(٣).

ووصف الله يحيى بالسيد لتحصيله الرئاسة الدينية من صباه ، فنشأ محترمًا من جميع قومه ، قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۞ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً ﴾ (٤)، وقيل : السيد الحليم التقي ، وقيل السيد الشريف .

والوصف الثالث : أنه حصور ، وأصل الحصر معناه الحبس ، والمراد أنه حبس نفسه عن الشهوات ، حتى لقد روي أنه امتنع عن النساء زهادةً واستعفافًا ، واتجاهًا إلى الروحانية ، وقيل: إنه كان لا يأتي النساء عجزًا ، وذلك غير صحيح ؛ لأن الله – سبحانه وتعالى – ساق ذلك الوصف في مقام المدح والثناء ، ولا يتحقق معنى المدح والثناء إلا إذا كان فيه اختيار ، ولم يكن عجزًا وجبرًا ؛ ولأن ﴿ حَصُورًا ﴾ صيغة مبالغة لحاصر ، أي إنه يبالغ في

---

(١) ينظر مفاتيح الغيب ٨ / ٣٩ والبحر المحيط ٢ / ٤٤٧ وإرشاد العقل السليم ١ / ٣٥٧ والتحرير والتنوير٣ / ٢٤٠ .

(٢) ينظر البحر المحيط ٢ / ٤٤٧ ، وإرشاد العقل السليم١ / ٣٥٧ .

(٣) ينظر نظم الدرر ٤ / ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

(٤) سورة مريم آية ١٢ ، ١٣ .

منع نفسه من الشهوات ، وليس في النص ما يدل على أنه امتنع عن النساء بخاصة ، بل النص يدل على أنه حبس نفسه عن الشهوات، وقدَعَها عن أهوائها.

والسر في توسط هذه الصفة ﴿ حَصُورًا ﴾ بين صفات الكمال ، تأنيسًا لزكريا عليه السلام ، وتخفيفًا من وحشته لانقطاع نسله بعد يحيى[1].

ليس بعد هذه الصفات إلا النبوة، وهي بشارة أخرى لزكريا بأن الله سيختار ابنه نبيًّا ، فإن الأوصاف السابقة فيها إجابة لدعائه ، ولكن الله سبحانه وتعالى مَنَّ عليه بأعظم مما دعا به .

ثم تأتي خاتمة الصفات ﴿ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ إشارة إلى موطن النبوة ، وموضع اختيارها ، والله – سبحانه وتعالى – أعلم حيث يجعل رسالته ، والسر في ترك العطف هنا فلم يأت النظم الكريم ﴿ وَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ؛ لأن النبي لا يكون إلا صالحًا ، إعلامًا بمزية رتبة الصلاح واحترازًا من المتنبئين[2].

والسؤال هنا لمَّا كان منصب النبوة أعلى من منصب الصلاح وقد وصفه بالنبوة ، فما الفائدة في وصفه بعد ذلك بالصلاح ؟ .

أجاب الرازي عن هذا السؤال بأن سليمان عليه السلام بعد حصول النبوة قال : ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾[3]، وتحقيق القول

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ٣ / ٣٤١ .

(٢) ينظر نظم الدرر ٤ / ٣٦٦، ٣٦٧ .

(٣) سورة النمل آية ١٩ .

فيه أن للأنبياء قدرًا من الصلاح لو انتقص لانتفت النبوة ، فذلك القدر بالنسبة إليهم يجري مجرى حفظ كل الواجبات بالنسبة إلينا، ثم بعد اشتراكهم في ذلك القدر تتفاوت درجاتهم في الزيادة على ذلك القدر ، وكل من كان أكثر نصيبًا منه كان أعلى قدرًا(١).

(١) ينظر مفاتيح الغيب ٨ / ٣٩ .

المبحث الثاني

﴿ من أسرار التناسب القرآني في دعاء زكريا في سورة مريم ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿ كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾[١]

مقصود سورة مريم (عليها السلام) :

مقصود سورة مريم التوحيد ، ونفي الولد ، والشريك ، مع ذكر قضية البعث القائمة على قضية التوحيد .

وذلك من خلال إثبات اتصافه سبحانه بشمول الرحمة بإضافة جميع النعم على جميع خلقه المستلزم للدلالة على اتصافه بجميع صفات الكمال ، والمستلزم لشمول القدرة على إبداع المستغرب ، المستلزم لتمام العلم ، الموجب للقدرة على البعث ، والتنزه عن الولد ؛ لأنه لا يكون إلا لمحتاج ، ولا سَمِيَّ له سبحانه ، فضلًا عن مثيل .

ويسير السياق في موضوعات السورة في أشواط ثلاثة :

الشوط الأول : يتضمن قصة زكريا ويحيى ، وقصة مريم وعيسى .

الشوط الثاني : يتضمن حلقة من قصة إبراهيم مع أبيه ، وقومه ، واعتزاله لملة الشرك.

---

(١) سورة مريم ، الآيات (١ – ٧) .

الشوط الثالث : يبدأ بالجدل حول قضية البعث ، وينتهي بمشهد مؤثر من مصارع القرون ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا** ﴾[١][٢]

مناسبة قصة زكريا لمقصود السورة

القصص هو مادة هذه السورة ، فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى ، فقصة مريم ومولد عيسى فطرف من قصة إبراهيم ...، ويستغرق هذا القصص حوالي تلثي السورة، ويستهدف إثبات الوحدانية والبعث، ونفي الولد والشريك وبيان منهج المهتدين ومنهج الضالين من أتباع النبيين[٣]. وفي إفراد زكريا ربه بالدعاء تأكيد على مقصود السورة الأصلي وهو التوحيد، إذ إن دعاءه ورجاءه دليل على استسلامه للواحد الأحد، القادر وحده لا غيره على العطاء والمنع ، فقصة زكريا دعوة لإفراد الله – تعالى – بالدعاء دون سواه .

والسر في افتتاح قصة مريم وعيسى بقصة زكريا ؛ لاتصالها بها وكونها حكاية " لشئون آل بيت مريم وكافلها ؛ لأن في تلك الأحوال كلها تذكيرًا برحمة الله – تعالى – وكرامته لأوليائه". [٤]

---

(١) سورة مريم آية ٩٨ .

(٢) ينظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ٢ / ٢٥٥ – ٢٦٦، وفي ظلال القرآن ٤ / ٢٢٩٩ – ٢٣٠٢ (بتصرف) .

(٣) ينظر في ظلال القرآن ٤ / ٢٣٠١ .

(٤) ينظر التحرير والتنوير ١٦ / ٦٠ .

مناسبة مفتتح السورة لمقصود السورة

لقد أفاض المفسرون في ذكر دلالة الأحرف المقطعة ، فقيل : كاف من كريم ، وها من هاد ، ويا من حكيم ، وعين من عليم ، وصاد من صادق، وقيل : هو قسم أقسم الله به وهو من أسماء الله تعالى ، وقيل اسم من أسماء القرآن ، وقيل اسم للسورة ... .

والذي أميل إليه أنها نماذج من الحروف التي يتألف منها القرآن ، فيجيء نسقًا جديدًا لا يستطيعه البشر ، مع أنهم يملكون الحروف ، ويعرفون الكلمات ، ولكنهم يعجزون أن يصوغوا مثل ما تصوغه القدرة المبدعة لهذا القرآن(١).

وسر مناسبة مقصود السورة للمفتتح ، أنه إذ ثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله ، مع كونه من جنس ما يقولون ، فهو دليل بالأولى على أن ما ذكر لا يكون إلا كلام رب العالمين، لا جرمَ كان الإيمان به وإفراده بالعبادة أولى ، وهو ما يخدم مقصود السورة الأصلي التوحيد .

بيان أوجه التناسب :

﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾

الظل الغالب في سياق السورة هو ظل الرحمة ، والرضى ، والاتصال، فهي تبدأ بذكر رحمة الله لعبده زكريا ، « ذكر رحمة ربك عبده زكريا » ، وقد تكرر في هذه السورة صفة الرحمن ست عشرة مرة ، وذكر اسم الرحمة أربع

---

(١) ينظر الكشاف ٢ / ٥٠٢ ومفاتيح الغيب ٢١ / ١٧٩ ، ١٨٠ وروح المعاني ١٦ / ٥٧ ، ٥٨ .

مرات ، فأنبأ بأن من مقاصدها تحقيق وصف الله بالرحمة المطلقة ، " وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية ، ودبيبها اللطيف في الكلمات ، والعبارات ، والظلال، كما تحس انتفاضات الكون ، وارتجافاته لوقع كلمة الشرك التي لا تطيقها فطرته ". (١)

فحتى جرس ألفاظها فيه رخاء وفيه عمق : رضيًّا ، سريًّا ، حفيًّا ، نجيًّا ... فأمَّا المواضع التي تقتضي الشدة والعنف ، فتجيء فيها الفاصلة دالًّا مشددة في الغالب : مدَّا ، ضدَّا ، إدًّا ، هدًّا ... .

ومجيء الفاصلة في قصة زكريا عليه السلام بالياء المشددة تليها الألف المفتوحة : زكريًّا، حفيًّا، سميًّا ... مناسب لحالة دعاء زكريا ربه، إذ يناجيه بعيدًا عن أعين الناس، بعيدًا عن أسماعهم، في عزلة يخلص فيها لربه، ويكشف عما يثقل كاهله فكانت الفاصلة الرخية مناسبة لهذه الحالة(٢).

مناسبة الحذف والتقديم أو وتقديم الخبر في قوله تعالى :

﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾

تبدأ القصة بمشهد الدعاء ، دعاء زكريا ربه في ضراعة وخفية ، فيحذف المبتدأ في افتتاح الكلام ؛ لتذهب النفس إلى المقصود من الكلام في سرعة ، مستبشرة برحمة الله الواسعة ، التي غمرت زكريا عليه السلام .

فيتعين أن « ذكر» خبر مبتدأ محذوف ، مثله شائع الحذف في العناوين ، والتقدير : هذا ذكر رحمة ربك عبده ، وهو بمعنى اذكر.

---

(١) ينظر في ظلال القرآن ٤ / ٢٣٠٠ و التحرير والتنوير ١٦ / ٦١ .

(٢) ينظر في ظلال القرآن ٤ / ٢٣٠٢ .

وقيل هو مبتدأ حذف خبره ، أي فيما يتلي عليك ذكرها ، ويجوز أن يكون « ذكر » أصله مفعول مطلق نائب عن عامله بمعنى الأمر ، أي اذكر ذكرًا ... (١) .

وقد جاء نظم هذا الكلام على طريقة بديعة من الإيجاز والعدول عن الأسلوب المتعارف في الإخبار ، وأصل الكلام : ذكر عبدنا زكريا إذ نادى ربه فقال ... رحمة ربك ، وسر تقديم الخبر « رحمة ربك » إشعار بعظيم فضل ورحمة الله عليه ، وفيه اهتمام بهذه المنقبة له ، والإنباء بأن الله يرحم من التجأ إليه .

وفي إضافة « رب » إلى ضمير النبي ﷺ وإلى ضمير زكريا ، من التنويه بهما ، فهي تسلية ، وتأييد لنبينا محمد ﷺ بكشف الغوامض ، وإظهار الخبء(٢).

و فيه تبشير لزكريا عليه السلام من أول الأمر بذكر عنوان الربوبية المشعرة بالإحسان والتفضل بما فيه مصلحة عباده .

والمراد بالرحمة في قوله : « ذكر رحمة ربك » ، لقد توسع الرازي في ذكر المراد من رحمة الله في هذا المقام ، فذكر لها ثلاثة أوجه ، إما أن يكون رحمة على أمته ؛ لأنه هداهم للإيمان ، والطاعات . وإما أن يكون رحمة على نبينا محمد ﷺ وعلى أمته ؛ لأن الله – تعالى – لما شرح لمحمد ﷺ طرقه في الإخلاص ، والابتهال في جميع الأمور إلى الله – تعالى – صار ذلك لفظًا

---

(١) ينظر الكشاف ٤ / ٥٠٢ وإرشاد العقل السليم ٣ / ٤١٣ ومفاتيح الغيب ٢١ / ١٨٠ ، ١٨١ .

(٢) ينظر نظم الدرر ٢ / ١٦٧ .

داعيًا له ولأمته إلى تلك الطريقة ، فكان زكريا رحمة ، ويحتمل أن يكون المراد أن هذه السورة فيها ذكر الرحمة التي رحم بها عبده زكريا(١).

والذي أميل إليه أن معنى ذكر الرحمة " بلوغها وإصابتها ، كما يقال : ذكرني معروف فلان أي بلغني "(٢) ، فالرحمة منه سبحانه المعونة ، والإجابة والإيصال إلى المراد ، وهي هنا استجابة دعاء زكريا ، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿ **يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى** ﴾ فالسياق يحتم أن المقصود بالرحمة هي استجابة الدعاء ، وكل ما ذكر من أقوال تنسحب من باب عموم وشمول الرحمة .

وأصل النداء في قوله تعالى: « إذ نادى ربه نداءً خفيًّا » رفع الصوت وظهوره ، وقد يقال لمجرد الصوت، بل لكل ما يدل على شيء، وإن لم يكن صوتًا، والمراد به هنا الدعاء(٣).

مناسبة التعبير بالصفة المبالغة " خفيًّا "

لقد أفاض المفسرون في بيان هذا الخفاء ، فذكروا أنه راعي سنة الله في إخفاء دعوته ؛ لأن الإخفاء أبعد من الرياء ، وأدخل في الإخلاص ، وعن

---

(١) ينظر مفاتيح الغيب ١٨١/٢١ .

(٢) ينظر إرشاد العقل السليم ٣ / ٤١٣ .

(٣) ينظر روح العاني ١٦ / ٥٩ والتحرير والتنوير ١٦ / ٦٢ .

الحسن نداء لا خفاء فيه ، أو أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في إبان الكبر والشيخوخة ، أو خفت صوته لضعفه وهرمه(١).

والذي يبدو لي – والله أعلم – أن في التعبير « خفيًّا » صفة مبالغة من « خفي » ،فيه من المبالغة في إخفاء دعائه ، فلا يعلمه قومه ؛ ولأنه مناجاة لله وضراعة إليه ، وفيه إشارة إلى أن إخفاء الدعاء أفضل من إظهاره وإعلانه ، وهذا المعنى المفهوم من هذه الآية جاء مصرحًا به في قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾(٢) وقوله تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾(٣) فكان الإخفاء أفضل من الإظهار ؛ لأنه أقرب إلى الإخلاص في الرغبة ، وأبعد من الرياء(٤).

ويذكر الرازي هنا سؤالًا بقوله: فإن قيل من شرط النداء الجهر، فكيف الجمع بين كونه نداءً وخفيًّا ؟.

والجواب من وجهين أولهما: أنه أتى بأقصى ما قدر عليه من رفع الصوت ، إلا أن الصوت كان ضعيفا لنهاية الضعف بسبب الكبر ، فكان نداءً نظرًا إلى قصده ، وخفيًّا نظرًا إلى الواقع .

---

(١) ينظر الكشاف ٢ / ٥٠٢ مفاتيح الغيب ٢١ / ١٨١ وروح المعاني ١٦ / ٥٩ والتحرير والتنوير ١٦ / ٦٢ ، ٦٣

(٢) سورة الأنعام آية ٦٣ .

(٣) سورة الأعراف آية ٥٥ .

(٤) ينظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن تأليف محمد أمين الشنقيطي ٤ / ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ط ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

ثانيهما : أنه دعا في الصلاة ؛ لأن الله – تعالى– أجابه في الصلاة لقوله تعالى : ﴿ **فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ** ﴾[١] ، فكون الإجابة في الصلاة يوجب أن يكون النداء فيها خفيًّا [٢].

ويجاب على ما ذكره الرازي بأن النداء المقصود ههنا هو الدعاء ، وإخفاء الدعاء – كما سبق بيانه – أفضل من إظهاره وإعلانه بدلالة الآيات التي صرح فيها بخفاء الدعاء .

والمراد بيانه هنا هو إيثار النظم الكريم لفظ « **النداء** » دون « **الدعاء** » ؛ إن المتأمل في النظم الكريم يجد نداءً من الناس لله ، وهو كثير في نداء الرسل ربهم ، كنداء نوح وزكريا ، وأيوب ، وهو غير جار على الأصل ، بل كان ينبغي أن يكون دعاءً لا نداءً ؛ لأن النداء يكون للبعيد ، والله أقرب إلى المرء من حبل الوريد ، وهو القائل : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾[٣] ، وقد يكن للتعظيم .

إن نداء الرسل ربهم يخضع لظرف واحد، هو الشدة البالغة، والكرب العظيم الذي كان يعتري كلا منهم ، فنداء نوح ربه كان سببه تعرض ابنه – وهو أقرب الناس إليه – إلى الهلاك ﴿ **وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ**

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٩ .

(٢) ينظر مفاتيح الغيب ٢١ / ١٨١ .

(٣) سورة البقرة آية ١٨٦ .

ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾[1]، ونداء زكريا وأيوب ويونس كلهم نادوا ربهم تحت ضغط شديد من جراء ما حل بهم من ابتلاء من الله .

فالنداء المحكي عن هؤلاء الرسل كان الباعث عليه حال المنادِي لا بُعْدَ المنادَى[2].

ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ تفسير لمضمون النداء وبيان لكيفيته[3] ، وهي وما بعدها تمهيد للمقصود من الدعاء وهو قوله : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ وإنما كان ذلك تمهيدًا لما يتضمنه من اضطراره لسؤال الولد ، والله يجيب المضطر إذا دعاه ، فليس سؤالهم الولد سؤال توسع لمجرد تمتع أو فخر[4].

إنها مناجاة بعيدة عن أعين الناس ، وعن أسماعهم ، في عزلة يخلص فيها زكريا لربه ، ويكشف له عما يثقل كاهله ، ويكرب صدره ، ويناديه في قرب واتصال: « رب ...» بلا واسطة حتى ولا حرف النداء، مسندًا الوهن إلى العظم « إنى وهن العظم مني » لما أنه عماد البدن ، ودعام الجسد ، فإذا أصابه الضعف ، والرخاوة تداعى ما وراءه ، وتساقطت قوته ؛ أو لأنه أشد أجزائه صلابة ، وقوامًا ، وأقلها تأثرًا من العلل ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن .

---

(١) سورة هود آية ٤٥ .

(٢) ينظر دراسات جديدة في إعجاز القرآن الكريم ٢٦٦ .

(٣) ينظر إرشاد العقل السليم ٣ / ٤١٤ .

(٤) ينظر التحرير والتنوير ٦ / ٦٧ ، ٦٨ .

مناسبة إفراد العظم للسياق

أفرد النظم الكريم « العظم » ولم يقل « وهنت العظام » ؛ لأن الواحد أو المفرد هو الدال على معنى الجنسية ، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام ، وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن ، ولو جمع لكان قصدًا إلى معنى آخر ، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ، ولكن كلها حتى كأنه وقع من سامع شك في الشمول والإحاطة لأن القيد في الكلام ناظر إلى نفس ما يقابله وهذا غير مناسب للمقام (١).

ويرجع السكاكي سبب إفراد العظم لطلب شمول الوهن العظام فردًا فردًا ، ولو جمع لم يتعين ذلك لصحة وهنت العظام عند حصول الوهن لبعض منها دون كل فرد(٢).

والذي يبدو لى – والله أعلم – أن السبب وراء إفراد العظم دون جمعه ، هو اتصال عظام الإنسان بعضها بالبعض ، فكأنها عظمة واحدة لا عظام متناثرة ، فيموت الإنسان ويبلى جسده ، إلا أن عظامه تبقى متماسكة مترابطة لفترة معينة ، كما أن السياق يتطلب التأكيد على شدة الضعف ، وأنه بلغ من زكريا عليه السلام مبلغًا عظيمًا ، وذلك أدخل في باب الدعاء ، ولذا كان التعريف في العظم « تعريف الجنس الدال على عموم العظام منه »(٣).

---

(١) ينظر البحر المحيط ٦ / ١٧٣ وروح المعاني ١٦ / ٦٠ .

(٢) ينظر مفتاح العلوم – السكاكي ٢١٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ (بتصرف) – ضبط وشرح نعيم زرزور – دار الباز بمكة المكرمة ودار الكتب العلمية – بيروت – طبعة أولى ١٩٨٣م ، وروح المعاني ٦٠/١٦ .

(٣) ينظر التحرير والتنوير ٦ / ٦٤ .

وقال ﴿ مِنِّي ﴾ ولم يقل عظمي مع أنه أوجز ؛ لما في ذلك من التفصيل بعد الإجمال ولأنه أصرح في الدلالة على الجنسية المقصودة هنا[1]، أو استحضارًا لزكريا عليه السلام في القصة المرة تلو الأخرى ، كما أن سياق الدعاء يتطلب الإطناب لبيان شدة التضرع والتذلل للمولى عسى أن يجيب دعاءه ، ولذلك ناسب هنا تأكيد الجملة بـ « إن » واسميتها ، لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونها.

ثم يذكر زكريا عليه السلام سببًا آخر وراء اضطراره لسؤال الولد ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ جملة فصحت وشُهد لها بالبلاغة ، شبه الشيب في البياض والإنارة بشواظ النار ، وانتشاره في الشعر ، وفشوه فيه، وأخذه منه كل مأخذ باشتعاله ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة ، فيجوز في الكلام استعارتان : إما تصريحية تبعية في الفعل ﴿ وَاشْتَعَلَ ﴾، وإما مكنية في الشيب مع قرينتها التخييلية ، حيث شبه الشيب بشواظ النار ، ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه ، وهو ﴿ وَاشْتَعَلَ ﴾ والقرينة هي إثبات ﴿ اشْتَعَلَ ﴾ للمشيب « المشبه » وهذا الإثبات يسمى تخييلية .

وبلاغة هذه الاستعارة تكمن في حسن البيان ، وتحريك المشاعر ، وتنبيه العقول وتنشيط الأذهان ، فالتعبير عن ظهور الشيب وانتشاره بالاشتعال ، قد أبرز الشيب في صورة واضحة بينة ، تجذب المشاعر ، وتنبه العقول إلى أنَّ انتشار الشيب لا يمكن تلافيه ودفعه ، كما أن شواظ النار لا يتلافى[2].

---

(١) ينظر روح المعاني ٨ / ٥٣٣ .

(٢) ينظر المرجع السابق ، ودراسة تحليلية لمسائل البيان – د.بسيوني فيود ٢٢٢ ، ٢٢٣ – مؤسسة المختار – ط ٢ /٢٠١٠م .

إذ ينبغي للداعي إظهار الضعف والخشية والخشوع في دعائه [١]، كقوله هنا : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ﴾[٣]

وإسناد الاشتعال إلى الرأس مجاز عقلي ؛ لأن الاشتعال من صفات النار المشبه بها الشيب ، فكان الظاهر إسناده إلى الشيب ، فلما جيء باسم الشيب تمييزًا لنسبة الاشتعال حصل بذلك خصوصية المجاز وغرابته ، وخصوصية التفصيل بعد الإجمال ، مع إفادة تنكير« شيبًا » من التعظيم ، وأصل النظم المعتاد : واشتعل الشيب في شعر الرأس.

وقد اقتبس معناها أبو بكر بن دريد في قوله:

واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جزل الغضا[٤]

كما أن النظم آثر التعبير﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ دون إضافة فلم يأت:(واشتعل رأسي) – مثلًا– اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا عليه السلام.[٥]

والذي يطمئن إليه القلب أن الجملتين : ﴿ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ ، و﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ كناية عن بلوغه في السن مبلغًا

(١) ينظر أضواء البيان ٤ / ٢٠٥ .
(٢) سورة مريم آية ٨ .
(٣) سورة آل عمران آية ٤٠ .
(٤) ينظر التحرير والتنوير ٨ / ٦٤، ٦٥ وروح المعاني ٨ / ٥٣٣ ، والبيت من مقصورة ابن دريد التي مطلعها :
يا ظبية أشبه شيء بالمها ترعى الخزامى بين أشجار النقا ، ينظر شرح مقصورة ابن دريد لعبد الله إسماعيل الصاوي ط: المكاتب العربية فاس المغرب ١٩٥١م .
(٥) ينظر الكشاف ٣ / ٤ .

إلى حد يستحيل معه الإنجاب عادة ؛ لفقدان أسبابه ، فلربما يهن عظم الشاب الصغير لمرض – أعاذنا الله – أو يبيض شعر الصغير من غير مرض أو علة ، كما أن المقصود في هذا السياق – سياق الدعاء – بيان أسباب عدم القدرة ؛ بل استحالة الإنجاب ، وبثها في ثنايا الدعاء ، حتى تكون أقرب للقبول ، والقول بالكناية هنا يؤكده الألوسي بقوله: « ففي الكلام كناية مبنية على تشبيه مضمر في النفس »[1] ويفصله صاحب الظلال فيقول: « ووهن العظم واشتعال الرأس شيبًا كلاهما كناية عن الشيخوخة ، وضعفها الذي يعانيه زكريا ، ويشكوه إلى ربه ، وهو يعرض عليه حاله ، ورجاءه »[2]

ومما يجب التنبيه إليه في هذا السياق حذف « **مني** » في الجملة الثانية فلم يأت النظم الكريم ﴿ **إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي** ﴾ ، و « **واشتعل الرأس مني شيبا** » وفي ذلك إعجاز رقمي بالغ الدقة ، فقد تساوت الجملتان في عدد الحروف ، ولعلنا ندرك سرا لهذا التساوي ؛ لأننا إذا سلمنا أن الجملتين كناية عن كبر السن – ونحن مسلمون له – ففي ذلك دليل آخر يؤكد أن وهن العظام يتساوى مع انتشار الشيب وأن هذا الشيب دليل على الكبر لا عن ضعف أو غيره – كما بينا – كما أن وهن العظام كان دليلا عليه ، فتساوى الأمران .

مناسبة خاتمة الآية ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ للجمل التمهيدية

(١) ينظر روح المعاني ١٦ / ٥٩ .

(٢) ينظر في ظلال القرآن ٤ / ٢٣٠٢ .

تختم الآية الكريمة بجملة تجري في الكلام مجرى المثل في حصول السعادة من شيء ، إذ المعنى لم أكن بدعائى إياك خائبا في وقت من أوقات هذا العمر ونظيره قوله تعالى في هذه السورة في قصة إبراهيم: ﴿ عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾[1] أي عسى أن أكون سعيدًا أي مستجاب الدعوة .

وهذه الجملة الختامية تمهيد للإجابة ، من طريق غير طريق التمهيد الذي في الجمل المصاحبة له ، بل هو بطريق الحث على استمرار جميل صنع الله معه ، وتوسل إليه بما سلف له معه من الاستجابة .

وهي جملة اعتراضية بين ما سبقها من تمهيد للدعاء ، واستجابته ، وما سيتلوها من مسببات طلب زكريا عليه السلام من الله أن يهبه الولد ؛ لما سيأتي من أسباب ، وهي كناية عن السعادة عكس الشقاوة ، فالمراد حصول السعادة التي هي ضد الشقاوة .

وقد حكي أن حاتما الطائي – أو معن بن زائدة – أتاه محتاج فسأله قائلًا : أنا الذي أحسنت إليه وقت كذا ، فقال مرحبا بمن توسل بنا إلينا ، وقضى حاجته.

كما أن في هذا التوسل إشارة إلى عظم كرم الله ﷻ ، وذلك مع التعرض في الموضعين لوصف الربوبية المنبئة عن إفاضة ما فيه صلاح المربوب ، مع الإضافة إلى ضميره ﷺ ﴿ مِنِّي ﴾ لا سيما توسطه بين كان وخبرها ﴿ أَكُنْ ﴾ لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة في التضرع ، ولذا قيل :

---

(١) سورة مريم آية ٤٨.

إذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدع الله تعالى بما يناسبه من أسمائه وصفاته[١].

كون المطلوب بالدعاء سببا للمنفعة في الدين قال تعالى: ﴿ **وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا** ﴾ جملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿ **إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي** ﴾ مترتب مضمونها على مضمونه ، فإن ضعف القوي ، وكبر السن من مبادئ خوفه عليه السلام من يلي أمره بعد موته[٢].

ولذا كان توكيد هذه الجملة يتناسب والحال التي عليها زكريا عليه السلام حال تبين شدة خوفه ، ورغبته الحثيثة في أن يكون هذا الولي خلفًا له ، في وراثة النبوة ، فجاء تأكيد الجملة بإن واسميتها ، يؤكد هذا الثبوت والدوام .

والموالي هم أبناء العم ، قال ابن الأعرابي : ابن العَمِّ مولى، وابن الأخت مولى وقول الشاعر:

هم المَوْلى وإن جنفوا علينا وإنا من لقائهم لزور

قال أبو عبيدة : يعني الموالي ، أي بني العَمِّ ، وقال أبو الهيثم : الموالى الابن ، وابن العم والعصبات كلهم[٣].

---

(١) ينظر تفسير أبي السعود ٣ / ٤١٤ ، وروح المعاني ٨ / ٥٣٣ ، ٥٣٤.

(٢) ينظر تفسير أبي السعود ٣ / ٤١٤ ، والتحرير والتنوير ٥٦/١٦ .

(٣) ينظر لسان العرب وتاج العروس مادة ولي .

والمراد بهم هنا الذين يخلفونه بعد موته ، إما في السياسة ، أو في المال ، أو في أمر الدين ، وأصل التركيب في « **ولي** » يدل على معنى القرب والدنو ، يقال : وليته أليه وليا أي دنوت ، وأوليته أدنيته منه.

والسر في خوفه الموالي أنهم كانوا شرار بني إسرائيل فخافهم على الدين أن يغيروه ويبدلوه ، وألاَّ يحسنوا الخلافة على أمته ، فطلب عقبا من صلبه صالحا يقتدى به في إحياء الدين ، ويرتسم مراسمه فيه(١).

والتعبير بالفعل الماضي ﴿ **خِفْتُ** ﴾ يؤكد تحقق الخوف وتمكنه من زكريا عليه السلام ، وأنه قد بلغ منه مبلغًا عظيمًا ، وهذا الفعل وإن جاء « على لفظ الماضي ؛ لكنه يفيد المستقبل أيضا ، كذلك يقول الرجل قد خفت أن يكون كذا، وخشيت أن يكون كذا أي إني خائف لا يريد أنه قد زال الخوف عنه»(٢).

وفي قوله: ﴿ **مِنْ وَرَائِي** ﴾ معنيان: من قدامي ، أو من بعد موتي ، والذي عليه إجماع من المفسرين : من بعد موتي ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف ينساق إليه الذهن أي : خفت فعل الموالي من ورائي ، أو جور الموالي(٣).

وفي التعبير بالفعل الماضي « كان » في قوله :﴿ **وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا** ﴾ دليل على أن العقر متمكن منها ، وثابت لها ، فلذلك حرم من الولد

---

(١) ينظر الكشاف ٣ / ٤ .

(٢) ينظر الفخر الرازي ١١ / ١٨٤ .

(٣) ينظر تفسير أبي السعود ٣ / ٤١٤ ، وروح المعاني ٨/٥٣٤ ، والتحرير والتنوير ١٦/٥٦ .

منها ، وفيه إعلام بتقادم العهد في ذلك ، وغرض زكريا من هذا الكلام بيان استبعاد حصول الولد فكان إيراده بلفظ الماضي أقوى[١].

مناسبة التعبير بالولي هنا دون الذرية كما في آل عمران

لا بد من الوقوف أولا على معنى الولي ، فمادة « ولي » كما سبق تدور حول ابن العم ، وابن الأخت ، ويطلق على العبد ، والولي في النكاح هو الرجل الذكر[٢].

يقول الرازي :« ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ فالأكثرون على أنه طلب الولد ، وقال آخرون بل طلب من يقوم مقامه ولدًا كان أو غيره ، والأقرب هو الأولى لثلاثة أوجه ، الأول : قوله تعالى في سورة آل عمران حكاية عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [٣]، والثاني قوله في هذه السورة : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ... ﴾ ، والثالث قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾[٤] ، وهذا يدل على أنه سأل الولد ؛ لأنه قد أخبر في سورة مريم انه له موالٍ ،

---

(١) ينظر الفخر الرازي ١١ / ١٨٤ وإرشاد العقل السليم ٣ / ٤١٥ والتحرير والتنوير ١٦ / ٧٠.

(٢) ينظر البحث صـ ٣٨ وتاج العروس ولسان العرب مادة ولي .

(٣) سورة آل عمران آية ٣٨ .

(٤) سورة الأنبياء آية ٨٩ .

وأنه غير منفرد عن الوراثة ، وهذا وإن أمكن حمله على وارث يصلح أن يقوم مقامه لكان حمله على الولد أظهر »[١]

ويقول أبو السعود : ﴿ وَلِيًّا ﴾ أي ولدًا من صلبي[٢] ، وهو ما قرره الألوسي[٣].

مما سبق يتضح أن الأظهر في المراد من الولي هو الولد الذكر ، ومن هنا أقول – والله أعلم – إن مناسبة التعبير بالولي في هذا السياق لفظية ، ومعنوية كما هو الحال في سياق سورة مريم ، أما اللفظية: فلمناسبة ذكر الولي بصيغة الجمع قبلها مباشرة قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ﴾ « والموالي : العصبة ، وأقرب القرابة ، جمع مولى بمعنى الولى »[٤].

وأما المعنوية : فإن السياق والمقام هنا مقام تصريح ، وتوسل وكشف لمكنون الصدور ، سياق يناجي زكريا عليه السلام ربه في خفاء ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ مصرحًا فيه عن خبايا نفسه، وما يجيش بصدره ، من دقائق ورغائب هذا الدعاء ؛ فألح في الطلب – وهو مطلوب في باب الدعاء – ذاكرًا مقدمات وأسباباً لهذا الطلب رغم فقدان أسباب تحققه ، ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ ﴿ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ

(١) ينظر الفخر الرازي ٢١ / ١٨٤ .
(٢) ينظر إرشاد العقل السليم ٣ / ٤١٥ .
(٣) ينظر روح المعاني ٨ / ٥٣٥ .
(٤) ينظر التحرير والتنوير ٦٧/٨ .

الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ﴾ ثم ختمها بالتصريح بسؤاله الولد صراحة ؛ لأن المقام يتطلبه ، دون تحميل للفظ أكثر من معنى ، كما في سورة آل عمران ، ويجوز أن يكون هذا من باب الترقي في الدعاء ، والطمع في رحمة الله وكرمه ، وسعة فضله ، وعظيم عطائه ، وذلك أنه في سورة آل عمران وبعد انقطاع أسباب الإنجاب عرفا ، حينما شاهد الآيات المبهرات خَرَّ إلى الله بالدعاء في طلب الذرية دونما تصريح ، فلما بشرته الملائكة ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ﴾ صرح في سورة مريم – عليها السلام – بالمقصود مباشرة ، دون تردد ﴿ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ أي ولدًا ذكرًا يحمل ميراث النبوة[1] .

وتأخير المفعول ﴿ وَلِيًّا ﴾ عن الجار ﴿ لِي ﴾ ،﴿ مِنْ لَدُنْكَ ﴾ لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع ، مع مافيه من التشويق إلى المؤخر ، فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مستشرفة له ، فعند وروده لها يتمكن عندها فضل تمكن ؛ ولأن فيه نوع طول بما بعده من الوصف ، فتأخيرهما عن الكل ، أو توسيطهما بين الموصوف والصفة ، مما لا يليق بجزالة النظم الكريم.

والفاء في قوله : ﴿ فَهَبْ لِي ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، فإن ما ذكره عليه السلام من كبر السن ، وضعف القوى ، وعقر المرأة موجب لانقطاع رجائه

---

(١) ينظر البحث صـ١٤ ، ١٥مناسبة لفظ الهبة وتقديم « لي »والتعبير بـ «لدن».

عن حصول الولد بتوسط الأسباب العادية ، واستيهابه على الوجه الخارق للعادة [١].

ولقد ذهب المفسرون في بيان المراد من الميراث إلى أربعة أقوال :

الأول : أن المراد بالميراث في الموضعين المال ، والثاني : أن المراد به في الموضعين هو وراثة النبوة ، والثالث: يرثني المال ، ويرث من آل يعقوب النبوة ، والرابع : يرثني العلم ، ويرث من آل يعقوب النبوة[٢].

والذي يطمئن إليه القلب أنها وراثة علم ودين ونبوة ، وذلك لأن نفوس الأنبياء لا تطمع إلا لمعالي الأمور ، ومصالح الدين ، وما سوى ذلك فهو تبع.

ويدل على ذلك أمران :

أحدهما : قوله : ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ومعلوم أن آل يعقوب انقرضوا من زمان ، فلا يورث عنهم إلا العلم ، والنبوة ، والدين.

والأمر الثاني : ما جاء من الأدلة على أن الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – لا يورث عنهم المال ، وإنما يورث عنهم العلم والدين ، فمن ذلك ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما عن أبي بكرالصديق ﷺ عن النبي ﷺ

---

(١) ينظر إرشاد العقل السليم ٣ / ٤١٥ وروح المعاني ٨ / ٥٣٥ والتحرير والتنوير ٨ / ٨٧ .

(٢) ينظر مفاتيح الغيب ٢١ / ١٨٥ .

أنه قال: « لا نورث ما تركنا صدقة » فهذا الحديث وغيره ظاهر في أن الأنبياء لا يورث عنهم المال ، بل العلم والدين[١].

وأصل الآل أهل، ولذلك يصغر بأهيل ، فأبدلت هاؤه ألفًا، وخص الآل دون الأهل؛ لأن الآل لا تضاف إلا إلى ذوي الأخطار كالأنبياء والملوك وأشباههم ، فلا يقال آل الإسكاف والحجام[٢] ، والمراد بهم هنا خاصة بني إسرائيل ، كما يقتضيه لفظ الآل المشعر بالفضيلة والشرف .

والمراد بقوله : ﴿ **وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا** ﴾ أي مرضيًا قولًا وفعلًا ، فهو دعاء بتوفيقه للعلم ، فكأنه طلب أن يكون ولده عالمًا ، وقيل المراد : اجعله مرضيا بين عبادك فلا يكون هناك تأكيد مطلقًا[٣]،كما أن هذه الصفة ﴿**رَضِيًّا**﴾ بما فيها من التضعيف تفيد شدة المبالغة في بيان هذا الرضا ، حتى يكون مهيأ لحمل النبوة .

وفي توسط ﴿ **رَبِّ** ﴾ بين مفعولي جعل للمبالغة في الاعتناء بشأن ما يستدعيه.

مناسبة الإجابة للسؤال ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ ... ﴾

---

(١) ينظر أضواء البيان ٤ / ٢٠٥ – ٢٠٧ ، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجهاد باب الفيء رقم ٤٦٧٦ ، ينظر الجامع الصحيح لأبي الحسن مسلم القشيري ، دار الجيل بيروت بدون تاريخ .

(٢) ينظر الكشاف ١ / ٢٧٩ في تفسير آية البقرة ٤٩ .

(٣) ينظر إرشاد العقل السليم ٣ / ٤١٦ وروح المعاني ٨ / ٥٣٦ .

لبيان هذه المناسبة ، لا بد من الإجابة على سؤال فحواه ؛ هل النداء المذكور في الإجابة ﴿ **يَا زَكَرِيَّا** ﴾ من الله أم من الملائكة ؟ .

بمراجعة آراء المفسرين نجد أن الرازي يبين أن الأكثرين على أن النداء من الله تعالى ، وذلك ؛ لأن ما قبل هذه الآية يدل على أن زكريا عليه السلام إنما كان يخاطب الله – تعالى – ويسأله ، وهو قوله : ﴿ **رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي** ﴾ ، وقوله: ﴿ **وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا** ﴾ ، وقوله:﴿ **فَهَبْ لِي** ﴾ ، وما بعدها يدل على أنه كان يخاطب الله تعالى وهو يقول: ﴿ **رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ** ﴾ ، وإذا ما كان قبل هذه الآية ، وما بعدها خطابا مع الله – تعالى – ، وجب أن يكون النداء من الله تعالى ، وإلا لفسد النظم(١).

ويرى أبو السعود أن المنادى الملائكة ، فقوله تعالى: ﴿ **يَا زَكَرِيَّا** ﴾ على إرادة القول ، أي قال تعالى يا زكريا ، لكن لا بأن يخاطبه عليه الصلاة والسلام بذلك بالذات ، بل بواسطة الملك ، على أن يحكى له عليه السلام هذه العبارة عنه ﷻ ، على نهج قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ** ﴾(٢) ، وتبعه في ذلك الألوسي(٣).

وعليه يكون في النداء حذف للمسند وهو إيجاز بالحذف ، أي قلنا يا زكريا ، وسره البلاغي الإسراع في التبشير بيحيى عليه السلام، وإدخال للسرور على زكريا عليه السلام، بتبشيره بولادة يحيى.

---

(١) ينظر الفخر الرازي ٢١ / ٦٥ .

(٢) سورة الزمر آية ٥٣ .

(٣) ينظر روح المعاني ١٦ / ٦٥ .

وهذا الرأي مبني على أن دعاء زكريا عليه السلام لم يكن إلا مرة واحدة ، وعدم ذكر بعض الدعاء في سورة مريم ، للتعويل على ما ذكر في سورة آل عمران ، كما أن عدم ذكر مقدمة الدعاء في آل عمران للاكتفاء بذكره ههنا ، والاكتفاء بما ذكر في موطن عما ترك في موطن آخر من السنن التنزيلية(١).

وما أميل إليه هو الرأي القائل بأن النداء من الله تعالى – كما ذكر الرازي، وما اعترض به أصحاب الرأي الآخر وهو قوله تعالى في آل عمران: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ يجاب عليه بأنه « يحتمل أن يقال : حصل النداءان ، نداء الله ونداء الملائكة كما أن قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ » يمكن أن يكون كلام الله تعالى (٢)، كما تقول لابن لك : قال أبوك كذا ، أي إنه أمر محقق الوقوع لا يحتاج إلى جدال أو شك فيه ، لأنه من مصدر أعلى فما بالنا بالمولى ﷻ .

وعليه يكون الدعاء كرر أكثر من مرة ، ففي أول الأمر ، حين شاهد زكريا عليه السلام الآيات الباهرات ، ومولد مريم – عليها السلام – مع انقطاع الأسباب خر مسرعا بدعاء ربه ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ دون تأخير أو تردد بما يفهمه لفظ ﴿ هُنَالِكَ ﴾ ثم كرر الدعاء مرة أخرى في خفاء مناجيًا ربه ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ مصرحا فيه بمكنون الصدور، باعثا رغبته الأكيدة في هذا المولود .

---

(١) ينظر إرشاد العقل السليم ٣ /٤١٦ ، وروح المعاني ٨/٥٣٥ .

(٢) ينظر مفاتيح الغيب : ١١ / ١٨٦ ، ١٨٧ .

وفي ذلك تعليم قرآني عظيم ، وهو استحباب تكرار الدعاء ، فيجب على الإنسان ألا ييأس من رحمة ربه حتى لو انقطعت الأسباب ؛ لأنه سبحانه مسبب الأسباب ، بل يدعو المرة تلو المرة عسى أن يستجاب له .

فإن اعترض بأن زكريا عليه السلام قد استجاب الله – تعالى– له بقوله:﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ .... ﴾

فما الحاجة إلى تكرار الدعاء ؟

أقول – والله أعلم – إن زكريا عليه السلام لما يستجب له بعد ، فهو تبشير ووعد بالعطاء وليس إجابة كاملة ، كما يفهمه قوله تعالى : ﴿ يُبَشِّرُكَ ﴾ ، ﴿نُبَشِّرُكَ ﴾ يقول أبو السعود : « وهذا هو جواب لندائه عليه السلام ووعد لإجابة دعائه »[١]، ويذكر الألوسي كلام أبي السعود ، معللا لقوله : ووعد بإجابة دعائه ، بقوله: « كما يفهمه التعبير بالبشارة دون الإعطاء »[٢] ، ويذكر الشيخ الطاهر ابن عاشور : أن البشارة الوعد بالعطاء[٣].

إذًا التبشير وعد بالعطاء ، وليس عطًاء كاملًا ، وهو ما يؤكد ما ذهبت إليه بجواز تكرار الدعاء من زكريا عليه السلام ، فهو وإن بشره الله ﷻ ووعد الله نافذ ، إلا أنه يجب تكرار الدعاء حتى تحصل الإجابة كاملة .

---

(١) ينظر إرشاد العقل السليم ٣ / ٤١٦ .

(٢) ينظر روح المعاني ٨ / ٥٣٨ .

(٣) ينظر التحرير والتنوير ٨ / ٦٩ .

ومما يؤكد استحباب تكرار الدعاء مع الوعد بالإجابة ، أن الله تعالى وعد سيدنا محمدًا إحدى الطائفتين : العير أو النفير: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾(١).

ومع ذلك يوم بدر أكثر النبي ﷺ من التضرع والابتهال ، ويقول فيما يدعو به : « اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم نصرك » ويرفع يديه إلى السماء حتى سقط الرداء عن منكبيه ، وجعل أبو بكر ﷺ يلتزمه من ورائه ويسوي عليه رداءه ، ويقول مشفقا عليه من كثرة الابتهال : يا رسول الله بعض مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك ، أي لم تتعب نفسك هذا التعب ، والله قد وعدك النصر(٢)، وهو ما يظهر شدة الانقياد والاستسلام ، وإظهار الافتقار إلى الله- تعالى- .

فإذا رجحنا وسلمنا بكون النداء من الله مباشرة ، فتكون إجابة الدعاء مناسبة للسياق ، فالسياق – كما بينت – سياق فيه تضرع بمكنون الصدر ، ذاكرًا كل الأسباب التي تدعو إلى استجابته ، فكان التبشير من الله دون واسطة فيه زيادة تطمين بتحقيق الدعاء وتشريف بخطاب الله له.

وعلى كل حال ، إذا كان الخطاب من الله مباشرة ، فتلك نعمة ما بعدها نعمة ، تتناسب والحال التي عليها زكريا ههنا ، وإذا كان مقول قول محذوف ففيها من الإسراع بالتبشير ، وإدخال المسرة مع ما يتناسب ويتماشى مع السياق والمقام فالمناسبة حاصلة على كلا الرأيين.

---

(١) سورة الأنفال آية ٧ .

(٢) ينظر السيرة النبوية لابن كثير ٤١٢/٢ ، ت مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة لبنان ١٣٩٥ هـ .

مناسبة خاتمة الدعاء ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾

السمي الموافق الاسم ، أي لم نجعل له من يوافقه في هذا الاسم من قبل وجوده ، وهذا شاهد على أن الأسامي السنع[١] جديرة بالأثرة ، فالعرب كانت تسمي بها لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النبز ،وقال رؤبة للنسابة البكري وقد سأله عن نسبه : أنا ابن العجاج ؛ فقال: قصرت وعرفت.

وهذه منة من الله وإكرام لزكريا إذ جعل اسم ابنه مبتكرا ، كما كان للأسماء المبتكرة أيضا مزية اقتداء الناس به من بعده ، حين يسمون أبناءهم ذلك الاسم تيمنا واستجادة .

والذي أميل إليه أن السمي الموافق في الاسم الوصفي بإطلاق الاسم على الوصف ، فإن الاسم أصله في الاشتقاق (وسم) ، والسمة : أصلها وسمة ، كما في قوله تعالى: ﴿ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى ﴾[٢] أي يصفونهم أنهم إناث ، ومنه قوله تعالى: ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ أي لا مثيل لله تعالى في أسمائه.

وهذا أظهر في الثناء علي يحيى والامتنان على أبيه ، والمعنى : أنه لم يجيء قبل يحيى من الأنبياء من اجتمع له ما اجتمع ليحيى ، فإنه أعطي النبوة وهو صبي ، وجعل حصورًا ، ووُلد لأبيه بعد الشيخوخة ، وبعث مبشرًا

---

(١) يقال : سنع الجل كظرف ، فهو سنيع أي جميل ، والمرأة سنعاء ، وسنع جمع أسنع : أي أسماؤهم حسنة . ينظر لسان العرب
وتاج العروس مادة (سنع) .

(٢) سورة النجم آية ٢٧ .

برسالة عيسى عليه السلام وجعل اسمه العلم مبتكرا غير سابق من قبله ، كما أن في تعيين اسمه عليه السلام ، تأكيدًا للوعد ، وتشريفًا له عليه السلام[1].

(١) ينظر الكشاف ٣ / ٤، ٥ ، وروح المعاني ٨ / ٥٣٩ والتحرير والتنوير ٨ / ٦٨ ، ٦٩ .

المبحث الثالث

﴿ من أسرار التناسب القرآني في دعاء زكريا في سورة الأنبياء ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) ﴾ (سورة الأنبياء الأيات ٨٦ – ٩٠)

مقصود السورة

مقصود سورة الأنبياء الاستدلال على تحقق الساعة وقربها ، ولو بالموت ، ووقوع الحساب فيها على الجليل والحقير ؛ لأن موجدها لا شريك له يعوقه عنها ، وهو من لا يبدل القول لديه .

والدال على ذلك أوضح دلالة مجموع قصص جماعة ممن ذكر فيها من الأنبياء – عليهم السلام – ، ولا تستقل قصة منها استقلالًا ظاهرًا بجميع ذلك، ولا تخلو قصة من قصصهم عن دلالة على شيء من ذلك فنسبت إلى الكل(١).

ومن أهم أغراضها التذكير بأن هذا الرسول ﷺ ما هو إلا كأمثاله من الرسل وما جاء إلابمثل ما جاء به الرسل من قبله ، وذكر كثير من أخبار الرسل – عليهم السلام –(٢).

مناسبة الآيات لمقصود السورة

---

(١) ينظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ٢ / ٨٦ ، ونظم الدرر ١٢ / ٣٧٨ ، وفي ظلال القرآن ٤ / ٢٣٦٤ ، ومواقع البدل الجملة في القرآن الكريم مقاماته وسماته البلاغية ٥١٥ د. إسماعيل رفعت رسالة دكتوراه جامعة الأزهر .

(٢) ينظر التحرير والتنوير ١٧ / ٦ – ٨ .

لو نظرنا إلى مفتتح السورة لتبين لنا وجه المناسبة ظاهرًا جليًا ، قال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾(١).

والآيتان موضع الدراسة تتحدثان عن نعمة الذرية والولد ، وهذه النعمة قد تكون من أهم أسباب الغفلة والإعراض عن ذكر الله ، وعن تذكر الساعة ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(٢)وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾(٣)وفي ذلك تنبيه من أول الأمر على أن الذرية المطلوبة ههنا ذرية لغرض خدمة الدين ، ووراثة النبوة ، وإذا كان طلب الولد كطلب المال زينة ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾(٤) فمن الممكن أن يكون طلب الولد منجاة للأب يوم الحساب كما خبرنا النبي ﷺ « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ... وولد صالح يدعو له » .

تحليل السياق

إن هذه الآيات وما قبلها تستعرض أمة النبيين ، وفيها تتجلى وحدة الرسالة ، والعقيدة ، كما تتجلى رحمة الله تعالى بعباده الصالحين ، وكيف

---

(١) سورة الأنبياء آية ١ .

(٢) سورة الأنفال آية ٢٨ .

(٣) سورة الكهف آية ٨٠ .

(٤) سورة الكهف آية ٤٦ .

نصر الله الرسل على أقوامهم ، واستحباب دعواتهم ، وأن الرسل كلهم جاءوا بدين الله ، وهو دين واحد في أصوله.

تستهل الآية بالإيجاز ﴿ وَزَكَرِيَّا ﴾ فالواو استئنافية ، ﴿ وَزَكَرِيَّا ﴾ علم على نبي ، وهو مفعول به لفعل محذوف تقديره : اذكر[1] ،أي اذكر يا محمد ﷺ خبر زكريا عليه السلام للعبرة والاتعاظ ، فبعد أن أبان الله – تعالى– النعمة الخاصة بكل نبي مذكور في هذه السورة أبان ما أنعم به على زكريا عليه السلام من نعمة الولد.

والسر في تخصيص زكريا عليه السلام بالذكر ههنا فيه إشارة إلى أن أمره آية من آيات الله في عنايته بأوليائه المنقطعين لعبادته ، فخص بالذكر لذلك[2].

والتعبير بصيغة النداء ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ سبق بيانه[3]، وفي إسقاط أداة النداء في قوله: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ فيه إشعار بالقرب والاتصال برحمة رب العالمين ، أو كما يقول البقاعي: « ﴿ رَبِّ ﴾ بإسقاط أداة البعد « يا » ؛ لأنه نداء الحبيب القريب »[4].

وفي النداء بعنوان الربوبية دون غيره من أسمائه وصفاته يتناسب مع سياق طلب الرحمة والولد ، والمعنى : يا من قمت على رعايتي ، وربيتني بأنواع اللطف والكرم ، قد قطعت بي الأسباب ، فإليك أشكو يا مسبب الأسباب.

---

(١) ينظر روح المعاني ١٧ / ٨٧ .

(٢) ينظر التحرير والتنوير ١٧ / ١٣٥ .

(٣) ينظر البحث صـ ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .

(٤) ينظر نظم الدرر ١٢ / ٤٦٨ .

مناسبة صيغة الدعاء ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ للسياق

من الملاحظ أن النظم الكريم في سورة آل عمران ومريم – عليهما السلام – بين أن زكريا حين دعا ربه عبر بصيغة الهبة ﴿ **قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ** ﴾ ، ﴿ **فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ** ﴾ أما في سياق سورة الأنبياء فقد عبر بـ ﴿ **لَا تَذَرْنِي** ﴾ ، دون لفظ الهبة ، كما آثر لفظ الذرية والولد ، وهنا عبر بالفردية ، فما السر وراء إيثار النظم الكريم التعبير بالفردية ﴿ **لَا تَذَرْنِي فَرْدًا** ﴾ في سياق سورة الأنبياء ؟، وهو ما أحاول الإجابة عليه بحول الله وتوفيقه.

بداية لا بد من التنويه إلى السر في إيثار لفظ ﴿ **لَا تَذَرْنِي** ﴾ دون لا تتركني ، أو لا تدعني مثلا ، فبمطالعة أصل مادة « وذر» نجدها تدور حول الجبل المنيع ، والملجأ والمعتصم والذي يعتمد عليه ، ومنه الوزير الذي يزر عن السلطان أثقال ما أسند إليه من تدبير المملكة(١).

من خلال هذه المعاني نجد أن التعبير بهذه الصيغة فيه إقرار من أول الأمر ، وتأكيد أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، وأن الله وحده هو الملجأ والمعتصم والمعتمد ، وذلك أدعى لقبول الإجابة ، مع ما في التعبير بالمضارع المشعر بالتجدد الاستمراري من معنى: لا تتركني في أي حال من الأحوال بدون عصمتك واجعلها متجددة مستمرة لي.

---

(١) ينظر تاج العروس ولسان العرب مادة : وذر .

والفرد : الذي لا يختلط به غيره ، ويقال عن الله – تعالى– فرد أي: مستغن عن كل تركيب وازدواج ، تنبيهًا على أنه – سبحانه – مخالف للموجودات كلها(١).

ويجوز أن يكون المعنى: لا تدعني وحيدًا لا أختلط بغيري في العبادة والطاعة ، وأشرك لي في العبادة من يعينني على ذلك كقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴾(٢) .

والذي يبدو لي – والله أعلم – من خلال مطالعة مادة (فرد) في المعاجم أن الفرد هو نصف الزوج ، والفرد في صفات الله تعالى من لا نظير له ، ولا مثيل ، ولا ثاني ، وسيف فرد ، لا نظير له من جودته ، وفَرَّد الرجل تفقه ، واستفرد فلان جعله فردًا لا ثاني معه(٣).

مما سبق يتضح أن صفة النظير هي الغالبة على مادة فرد ، وكأن زكريا عليه السلام سأل الله أن يرزقه نظيرا له يحمل النبوة ، ويكمل مسار الدعوة ،

---

(١) ينظر المفردات في غريب القرآن – أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ) ٢ / ٢٨٣ – تحقيق : صفوان عدنان الداودي – دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت – الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ .

(٢) سورة طه آية ٢٩ .

(٣) ينظر لسان العرب وتاج العروس مادة (فرد) .

وهو لا يكون إلا ولدًا ذكرًا ، ومما يؤكد ذلك ما عليه جمهور المفسرين وهو قولهم « لا تدعني وحيدًا بغير ولد »[١].

وجملة ﴿ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ ظاهرها نهي ، لكنها في الحقيقة تعوذ ودعاء ، لأن النهي إن كان من السيد للعبد فهو نهي ، وإن كان من العبد للسيد فهو دعاء .

والمناسبة في التعبير بصيغة ﴿ فَرْدًا ﴾ ههنا دون « وليا » أو « ذرية» من الممكن أن تكون هناك مناسبة لفظية ، ومناسبة معنوية ، مما يظهر عظمة القرآن الكريم حيث راعى في كل سياق كلتا المناسبتين ، فهذا وجه دقيق من أوجه بيانه وإعجازه .

فاللفظية هي التناسب والانسجام التام بين لفظ ﴿ لَا تَذَرْنِي ﴾ ، ﴿فَرْدًا ﴾ ؛ لأن المعنى: لا تتركني فيكون قوله: ﴿ فَرْدًا ﴾ أظهر في بيان شدة الحاجة والافتقار مع ما فيه من الاختصار ، وكأن صيغة الفردية تلازم صيغة عدم الترك ﴿ لَا تَذَرْنِي ﴾ .

كما أن النظم لو أتى بقوله: ولدًا أو ذرية ، لما جاز ، بل يحتاج إلى نفي آخر ليستقيم المعنى ، فيكون التقدير: لا تذرني بلا ولد أو بلا ذرية ، وفي ذلك ركاكة وضعف في التركيب لا يستقيم معه النظم الكريم ، ويكون

---

(١) ينظر تفسير القرآن العظيم – لأبي الفداء إسماعيل بن كثير : ٥/٢٧٠دار الكتب العلمية بيروت – ط ١ / ١٤١٩ م، ولباب التأويل في معاني التنزيل – علاء الدين علي بن محمد المعروف بالخازن ٤/٤٢٢ دار الكتب العلمية ط١/١٤١٥هـ .

التقدير أيضا: لا تذرني فردا أو وحيدا بلا ولد أو ذرية ، فكان التعبير بالفرد أوجز وأخصر.

فأتى النظم الكريم بـ ﴿ فَرْدًا ﴾ ليبين شدة الحاجة والافتقار والضعف ، وهو ما يتطلب الولد ، فيكون من باب المجاز المرسل لعلاقة السببية ، حيث أطلق السبب وهو الافتقار والحاجة المعبر عنها بلفظ ﴿فَرْدًا﴾ وأراد المسبب وهو الولد.

وأما عن المناسبة المعنوية فبالرجوع إلى مقصود السورة وسياقها نجدها تركز على قضية البعث ، وتبين أن الساعة لا محالة واقعة ، وأنها وشيكة الوقوع وقد حفلت ببيان ذلك في البدء والختام قال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾[1] ، وقبل الختام يأتي قوله تعالى: ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾[2]فالحديث عن الساعة والبعث يتناسب معه التعبير بالفردية، انظر إلى قوله تعالى:﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾[3] ، وقوله: ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾[4]،وقوله: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[5] ، فظلال الوحدة ، والافتقار ،

---

(١) سورة الأنبياء آية ١ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٩٧ .

(٣) سورة مريم آية ٨٠ .

(٤) سورة مريم آية ٩٥ .

(٥) سورة الأنعام آية ٩٤ .

والضعف وشدة الحاجة تلقيها تلك اللفظة ﴿ فَرْدًا ﴾ فبين التعبير بالفردية وسياق السورة مناسبة لبيان حال العبد وقت الحساب.

فإن اعترض بأن هذا في الدنيا وتلك في الآخرة ، أقول – والله أعلم – إن الغرض من سؤاله الولد بقوله: ﴿ فَرْدًا ﴾ وإن كان أمرًا دنيويًا ، وهو وراثة النبوة ، إلا أن فيه صلاح الأمر الأخروي بتلك الرسالة التي تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

ثم تأتي خاتمة الآية ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ ، ثناءً على الله بأنه الباقي بعد فناء الخلق، وأنه الوارث لهم على سبيل التمثيل كقوله تعالى: ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[(١)(٢)] فـ ﴿ خَيْرُ ﴾ أفعل تفضيل ، ولكنه ليس على بابه[(٣)].

وشاع في الكتاب والسنة ذكر صفة من صفات الله عند سؤاله إعطاء ما هو من جنسها ، كما قال أيوب ﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[(٤)].

مناسبة إجابة الدعاء للسؤال ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ... ﴾

إنها الإجابة الكاملة ، واللحظة الفاصلة التي تتجلى فيها عناية الله بزكريا ، فيستجيب له دون تبشير أو وعد بعطاء ، بل إنعام وتفضل بأن رزقه يحيى عليه السلام ، فالسورة تعرض مجموعة من قصص الأنبياء ، بل هي خاتمة

---

(١) سورة المائدة آية ١١٤ .

(٢) ينظر تفسير الخازن: ٤ / ٤٢٢ .

(٣) ينظر التحرير والتنوير ١٧ / ١٣٥ ومفاتيح الغيب ٢٢/ ٢١٧ .

(٤) سورة الأنبياء آية ٨٣ .

لمجموعة قصص لهؤلاء النخبة من الأنبياء ، وكأنها عرض خلاصة ، ونتيجة لما حدث لهؤلاء الأنبياء مع أقوامهم فكان التعبير بصيغة الاستجابة مشعرًا بانتهاء قصة زكريا عليه السلام بخلاف سورة آل عمران ، ومريم ﴿ **يُبَشِّرُكَ** ﴾ ، ﴿ **نُبَشِّرُكَ** ﴾ فكان التعبير بالمضارع يدل على التجدد الاستمراري ، وأن وعد الله متجدد له ومستمر طالما أقبل عليه بالدعاء .

وفي سورة الأنبياء جاء التعبير بالماضي ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ** ﴾ دالًا بلا ريب على تحقق الوقوع ، وأن الله حقق وعده وأنجزه ، مع ما في « نا» العظمة من معنى القدرة المهيمنة المسيطرة القادرة على حدوث ذلك الوعد ، دونما عناء ومشقة.

وما تحمله السين والتاء أيضا ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ** ﴾ من تأكيد الإجابة مثل ، استوقد ، والمعنى: تأكيد الله – تعالى – للاستجابة لزكريا عليه السلام .

كما نجد تأكيدًا آخر في قوله: ﴿ **وَوَهَبْنَا** ﴾ بالماضي تأكيدًا للاستجابة السابقة وتحقق وقوعها، كما فيه إشارة من طرف خفي إلى أن الجواب ههنا أتى شاملًا لجملة دعاء زكريا في آل عمران ومريم ﴿ **قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ** ﴾ ، ﴿ **فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ** ﴾ فكانت الآية خاتمة جامعة مانعة.

ومما يلفت الانتباه في التعبير بقوله: ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا** ﴾ ما يبين مدى إعجاز القرآن الكريم بمطالعة سورة الأنبياء نجد عجبًا وتناسبًا دقيقًا ، فما من نبي نادى ربه ، إلا وكانت النتيجة ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا** ﴾ ، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ **وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ** ﴾ ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى**

رَبَّهُ ..... فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا ﴾ ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ .... فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ ﴾ ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ .... فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا ﴾(١)

فإذا كان التعبير "بالنداء دون الدعاء يتناسب مع شدة الحاجة ، والكرب العظيم الذي يعتري كلًا منهم" (٢)، كان التعبير بالاستجابة شدة تأكيد ، وتفريج وإجابة للدعاء تتناسب مع شدة الحاجة والافتقار ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا.

ومما يلفت النظر أيضا ذكر الغرض من النداء في قصة زكريا : **﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾** ، بينما لم يذكر في سياق قصة نوح ، وإنما ذكر النداء والاستجابة مباشرة : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَه ﴾(٣)

ولعل السر في ذلك – والله أعلم – أن النداء في جانب نوح عليه السلام دعاء بهلاك الكافرين **﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾**(٤) ؛ فكان طي ذكره ههنا في مقام الاستجابة التي تحمل الرحمة والبشرى أولى ، بخلاف دعاء زكريا عليه السلام فهو دعاء بحصول الولد.

---

(١) سورة الأنبياء الآيات ٧٦ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) ينظر دراسات جديدة في إعجاز القرآن ٢٦٤ .

(٣) سورة الأنبياء آية ٧٦ .

(٤) سورة نوح آية ٢٦ .

وتختم الآية ببيان علة قبول دعاء الأنبياء السابق ذكرهم ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** ﴾ وضمائر الجمع عائدة إلى المذكورين من الأنبياء – عليهم السلام – ، والجملة تعليل وبيان بأنهم ما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم إلا لمبادرتهم أبواب الخير ، ومسارعتهم في تحصيله ، كما يفعل الراغبون في الأمور الجادون(١).

وفي إيثار حرف الجر﴿ **فِي** ﴾ دون « **إلى** » في قوله تعالى: ﴿ **فِي الْخَيْرَاتِ** ﴾ بيان لثباتهم واستقرارهم في أصل الخيرات ، بخلاف « **إلى** » المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجهين إليها(٢).

وفي هذا الختام إعلام بقبول دعاء المؤمن شريطة أن يخلص عمله لله وأن يسارع في أبواب الخيرات ، وأن يقبل على الله بالدعاء في جميع أحواله مخبتًا ومتضرعًا ، وخاشعًا.

---

(١) ينظر الكشاف ٣ / ١٣١، والتحرير والتنوير ١٧ / ١٣٦ .

(٢) ينظر إرشاد العقل السليم ٣ / ٥٣٤ .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على المبعوث بالرحمات ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين ... وبعد

فبعد هذه الرحلة المباركة في أغوار النظم القرآني ، والتي لا تخلو من لذة ، ومتعة ؛ لأنها في كلام رب العالمين ، الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1] أجمل بعض النتائج المهمة في البحث ، مع التنويه بأن كل لفظة لو تأملها الموفق فهي نتيجة في ذاتها.

أولًا: ذلك الترقي في الاستدلال بديع النظم حسن التأليف ، فقصة ولادة عيسى عليه السلام لم تذكر مباشرة ، بل مهد القرآن الكريم لذكرها بأمرين: ولادة مريم – عليها السلام – من أمٍّ عاقر وولادة يحيى من أب فان ، وأمٍّ عاقر ، وهو أدعى للقبول ، حتى لا يقابل الأمر بالإنكار ؛ لأنه سبحانه إذا كان قادرا على أن تأتي مريم من أم عاقر ، ويحيى من أبٍ فانٍ وأم عاقر ، كان ذلك أدعى لقبول ولادة عيسى من أم بلا أب، أسلوب من أساليب الإقناع والتصعيد في المعاني.

ثانيًا:أكدَّ البحث وجه المناسبة في إيثار لفظة ﴿ هُنَالِكَ ﴾ التي تدل على سرعة امتثال زكريا للدعاء دون تردد ، بعد مشاهدة الآيات الباهرات ، وكأن ﴿ هُنَالِكَ ﴾ تحيط بمطلق الزمان والمكان الكائنين في هذه اللحظة....

---

(١) سورة فصلت آية ٤٢ .

ثالثًا: بيَّن البحث مناسبة التعبير بصيغة الدعاء ، التي تشعر بالافتقار إلى المدعو ، ومنهج القرآن الكريم في التزامه الدعاء باسم«**رب** ، **ربنا**»، دون اسم آخر من أسمائه الحسنى ... .

رابعًا: بينت المناسبة في التعبير بلفظ الذرية في سورة آل عمران دون لفظ « **ولد** » كما في سورة مريم ، وأن هناك مناسبة لفظية ، وأخرى معنوية ، فاللفظية: ذكر لفظة الذرية أكثر من مرة في الاصطفاء ، والمعنوية: هي ذلك الأدب القرآني الرفيع الذي راعى حال امرأة عمران ونفسيتها لأنها كانت تطلب الولد فأتت أنثى على خلاف ما تترقب ، ومراعاة لحال مريم – وهي أنثى – وهو كافلها ، فناسب التعبير بالذرية المشعر بالعموم .

خامسا: بيَّن البحث دور الفاصلة ﴿ **إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ** ﴾ في تأكيد مضمون دعاء زكريا ، فليس المراد يسمع صوت الدعاء ، فذلك معلوم ، بل المراد منه أن يجيب دعاءه ، ولا يخيب رجاءه ، فالجملة تعليل لما قبلها ، وتحريك لسلسلة الإجابة .

سادسًا: أكد البحث أن التبشير خلاف الإجابة ، وأن التبشير لا يستلزم الإجابة على الفور .

سابعًا: ذكرت مناسبة مجيء الفاصلة في سورة مريم بالياء المشددة تليها الألف المفتوحة « زكريا ، خفيًا ، شقيًا ... » ، ومناسبتها لحالة دعاء زكريا ، إذ يناجي ربه بعيدا عن أعين الناس ، بعيدا عن أسماعهم ، في عزلة يخلص فيها لربه ، ويكشف عما يثقل كاهله ، فكانت الفاصلة المديدة الرخية موافقة لهذه الحالة.

ثامناً: إن إخفاء الدعاء أفضل من إظهاره وإعلانه ، وهو ما يفهمه التعبير بصيغة المبالغة ﴿ **خَفِيًّا** ﴾ ، كما صرح به قوله تعالى: ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً** ﴾.

تاسعاً: بيَّن البحث مناسبة التعبير بالنداء دون الدعاء في قوله تعالى: ﴿ **إِذْ نَادَى رَبَّهُ** ... ﴾ ؛ لأن النداء يكون للبعيد ، والله أقرب إلى المرء من حبل الوريد ، إن التعبير بالنداء ههنا يظهر شدة الحاجة والافتقار إلى هذا الولد ، والباعث عليه حال المنادِى لا بعد المنادَى .

عاشراً: بيَّنت مناسبة التعبير بالولي في سياق سورة مريم ﴿ **هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا** ﴾ دون « **ذرية** » كما في سورة آل عمران ، وأرجعت ذلك إلى أمرين : أحدهما معنوي والآخر لفظي، فالمعنوي أن السياق والمقام مقام تصريح، وتوسل، وكشف لمكنون الصدور، سياق يناجي زكريا ربه في خفاء، مصرحا فيه عن خبايا نفسه، وما يجيش بصدره من دقائق ورغائب هذا الدعاء، فكان التعبير بلفظ الولي المشعر بكونه ولدًا ذكرًا، أنسب إلى حال التصريح، والمناسبة اللفظية هي ذكر الولي بصيغة الجمع قبلها مباشرة ﴿ **وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي** ﴾ .

حادي عشر: استحباب تكرار الدعاء ، فيجب على الإنسان ألا ييأس من رحمة ربه ، حتى لو انقطعت به الأسباب ؛ لأنه سبحانه مسبب الأسباب؛ بل يدعو المرة تلو المرة عسى أن يستجيب دعاءه .

ثاني عشر: بيَّنت السر في التعبير بالفردية في سياق سورة الأنبياء: ﴿ **رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا** ﴾ دون « **ذرية** » أو « **ولي** » كما في آل عمران ومريم ، ومدى مناسبة لفظ ﴿ **فَرْدًا** ﴾ لقوله: ﴿ **لَا تَذَرْنِي** ﴾ ومناسبة التعبير باللفردية لمقصود السورة الأصلي ... .

ثالث عشر: بيَّنت المناسبة في التعبير بالاستجابة ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى** ﴾ في سياق سورة الأنبياء ، وما تشعره بانتهاء قصة زكريا عليه السلام ... .

ثبت المراجع

١) الإتقان في علوم القرآن السيوطي تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم المكتبة العصرية – بيروت ١٤١٨ هـ .

٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود دار الفكر – بيروت .

٣) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم د . صبَّاح دراز: ط : ١ / ١٤٠٦ هـ ، مطبعة الأمانة .

٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن تأليف محمد أمين الشنقيطي ط ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

٥) البحر المحيط ابو حيان الأندلسي دار الفكر – بيروت .

٦) براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور د. محمد بدوي عبد الجليل – المكتب الإسلامي بيروت طبعة أولى ١٤٠٥هـ .

٧) البرهان في علوم القرآن الزركشي تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم المكتبة العصرية – بيروت .

٨) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني د. فاضل صالح السامرائي دار الفجر – العراق ٢٠٠٨ م .

٩) تاج العروس من جواهر القاموس – محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ) – تحقيق : مجموعة من المحققين – دار الهداية .

١٠) التحرير والتنوير محمد الطاهر ابن عاشور مكتبة ابن تيمية .

١١) تفسير القرآن العظيم – لأبي الفداء إسماعيل بن كثير : دار الكتب العلمية بيروت – ط ١ / ١٤١٩ م .

١٢) تفسير الشعراوي : الخواطر لمحمد متولي الشعراوي : مطابع أخبار اليوم ١٩٩٧ م .

١٣) التناسب البلاغي في سورة لقمان موسى درباش الزهراني رسالة ماجستير جامعة أم القرى ١٤٢٤هـ .

١٤) التناسب البياني في القرآن د. أحمد أبو زيد – منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ١٩٩٢م .

١٥) التناسب بين عناصر القصيدة عند النقاد والبلاغين وقيمته في الفكر. الحديث جردي سليم الثبيتي رسالة ماجستير – كلية اللغة العربية – جامعة أم القرى – مكة المكرمة ١٩٨٤م.

١٦) جامع البيان في تأويل القرآن – محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) – ت أحمد محمد شاكر – مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م .

١٧) الجامع لأحكام القرآن المسمى تفسير القرطبي – أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) – تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش – دار الكتب المصرية – القاهرة – الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م .

١٨) دراسات جديدة في إعجاز القرآن ، د عبد العظيم المطعني : مكتبة وهبة، ط ١ ، ١٤١٧ هـ .

١٩) دراسة تحليلية لمسائل علم البيان – د.بسيوني فيود – مؤسسة المختار– ط الثالثة ٢٠١٠م .

٢٠) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني محمود شكري الألوسي – دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٢١) زهرة التفاسير – محمد مصطفى أحمد ت (١٣٩٤هـ) – دار الفكر العربي.

٢٢) السيرة النبوية – لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير – ت مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة لبنان ١٣٩٥ هـ /١٩٧٦م .

٢٣) في ظلال القرآن سيد قطب دار الشروق – القاهرة الطبعة الشرعية الخامسة عشرة ١٩٨٨م .

٢٤) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل محمود ابن عمر الزمخشري دار المعرفة – بيروت .

٢٥) لباب التأويل في معاني التنزيل – علاء الدين علي بن محمد المعروف بالخازن دار الكتب العلمية ط١/١٤١٥هـ .

٢٦) لسان العرب – محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري (المتوفى: ٧١١هـ) – دار صادر – بيروت – الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ .

٢٧) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ) – تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ .

٢٨) لمسات بيانية في نصوص التنزيل – د. فاضل صالح مهدي السامرائي – دار عمار للنشر عمان – ط٣ /١٤٣٣هـ .

٢٩) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور البقاعي مكتبة المعارف – الرياض ط أولى ١٩٨٧م.

٣٠) معاني القرآن وإعرابه – إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ) – تحقيق : عبد الجليل عبده شلبي – عالم الكتب – بيروت – الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

٣١) مفاتيح الغيب الرازي دار الفكر – بيروت طبعة ثالثة ١٩٨٥م .

٣٢) مفتاح العلوم السكاكي ضبط وشرح نعيم زرزور – دار الباز بمكة المكرمة ودار الكتب العلمية – بيروت – طبعة أولى ١٩٨٣م .

٣٣) من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن رؤوف أبو سعدة دار الهلال – القاهرة ١٩٩٤م .

٣٤) مواقع البدل الجملة في القرآن الكريم مقامتها وسماتها البلاغية – إسماعيل رفعت السوداني _ رسالة دكتوراه ٢٠١١م جامعة الأزهر .

٣٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور البقاعي دار الكتاب الإسلامي طبعة ثانية ١٩٩٢م .

٣٦) الوسيط وهبة مصطفى الزحيلي – دار الفكر دمشق– ط ١ – ١٤٢٢هـ.

محتويات البحث

الموضـــــــــوع

المقدمة

التمهيد (مدخل لدراسة التناسب)

توطئة بين يدي البحث

المبحث الأول : من أسرار التناسب القرآني في دعاء زكريا في سورة آل عمران

المبحث الثاني: من أسرار التناسب القرآني في دعاء زكريا في سورة مريم

المبحث الثالث: من أسرار التناسب القرآني في دعاء زكريا في سورة الأنبياء

الخاتمة :

ثبت المراجع:

محتويات البحث